الطريق إلى الله:

أبو طالب المكي نموذجاً

إعداد الدكتور/ أحمد محمود الجزار(*)

تمهيد :

قد لا يكون في القول مبالغة إذا نظرنا إلى التصوف كدائرة من دوائر الفلسفة الإسلامية لا تقل أهمية بل ولا خطراً عن دوائرها الأخرى. فكثير من شخصياته لم تزل في حاجة إلى الدرس والبحث، رغم كثرة الجهود التي بذلت فيه من جانب أصحابه أو غيرهم. بل لم يزل في اعتقادي بعض ما درس من شخصياته ونظرياته أيضاً رغم خطر بعضها بحاجة إلى دراسات أخرى تكشف عن جذورها من ناحية وتتابع الكشف عن تطورها عبر مراحل التصوف من ناحية أخرى، فذلك مما يساعد في الإبانة عن حقيقته والكشف عن حقيقة الصوفية الإسلامية والتي تلائم مشرب الإسلام عقيدة وشريعة، والأهم من هذا أن بعضاً من قضاياه الأساسية لم يتم الإبانة عنها بما نستحقه من الدراسة. وإذا لم أكن مخطئاً في اعتقادي فإن ذلك ينسحب بوجه من الوجوه على شخصية أبي طالب المكي وما ورد عنه من أذواق وما هو مثبوت في ثناياها من أفكار .

وقبل الولوج في دقائق بحثنا عن ماهية الطريق إلى الله عند صوفية الإسلام، نؤكد أن تركيزنا على المكي لن يصرفنا عن عقد مقارنات بينه وبين السابقين عليه أو من جاءوا بعده وبخاصة أن بعضاً منهم قد أفاد من المكي

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب – جامعة المنيا.

كالغزالي (ت505هـ) السهروردي البغدادي (ت632هـ) ومحي الدين بن عربي (ت638هـ). ثم أن المكي نفسه قد أفاد ممن سبقوه في قطع عقبات الطريق أو ما كتبوه في مؤلفاتهم. وسنسوق في ثنايا البحث بينات وإشارات لطيفة للتدليل على ما نقول .

ومعنى ذلك أن منهجنا في هذا البحث يتجه وجهة تحليلية مقارنة وكلنها نقدية في الآن نفسه فنحن لا نعرض للمكي ولا غيره من صوفية الإسلام في أي قضية إلا ولنا موقف منها ليس لأن هذا صنيع الباحث أو ما يتعين أن يكون عليه إزاء ما يدرسه، بل لأن هذا ألزم ما يكون للدارس للتصوف فقد كثر فيه اللغط وتصدي الكثيرون للكتابة فيه وعنه بلغة انفعالية لا تكشف عن حقيقته ولا مبناه ولا عن موقعه في دائرة نكر المسلمين. ويكفي ما نقدم لنمضي إلى جوانب بحثنا .

أولاً : أبو طالب الميكي حياته ومكانته :

يعد أبو طالب المكي (ت386هـ)[1] واحداً من أبرز شيوخ التصوف في القرن الرابع الهجري، الذي شهد ظهور أعلام بارزين لا يقلون عنه أهمية كالطوسي (ت378هـ) والكباذي (ت380هـ) والسلمي (ت 412هـ) وغيرهم، تماماً كما شهد القرن الثالث الهجري ظهرو صوفية آخرين قبله كالمحاسبي (ت243هـ) والجنيد (ت297هـ) والتستري (ت283هـ) والحلاج (المقتول 309هـ) والشبلي (ت334هـ)، وبفضل هؤلاء جميعاً تبلور التصوف كعلم للباطن أو علم لأحوال القلوب أو علم للسلوك في مقابل علم الظاهر أو علم الدراية[2] ولعله لهذا السبب اعتبر الباحثون فترة القرنين الثالث والرابع الهجريين هما العصر الذهبي للتصوف[3] كان ثمرتهما عدداً من المؤلفات البارزة في

مجـال التصـوف منهـا كتـاب اللمـع للسـراج الطوسـي والتعـرف لمـذهب أهـل التصوف للكلاباذي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي[4] .

ويبدو من سيرة المكي – موضوع بحثنا – أنه كان صاحب مجاهدات قاسية فقد وصل إلى درجة عالية في الطريق الصوفي. والظاهر أنه كان يتابع شيخه التستري (ت283هـ) وشيخ شيخه ابن سالم[5]، فطريقته التي تنسب إليه ترتكز على مجاهدة النفس والرياضة حتى يصل المريد إلى درجات الكمال[6] لكن هذا الكمال وإن أدى بالتستري شيخه وشيخ إمامه ابن سالم إلى حصول المعرفة على طريقتهم إلا أنهما لم يسلما معاً من أقوال مستشنعة في ظاهرها وكذلك المكي أيضاً ومن ثم بدعه الناس وهجروه فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك[7] .

وأياً ما كان الأمر، فقد كان المكي صاحب مكانة على الأقل في قلوب الصوفية وبعض الفقهاء. فقد أفاد الغزالي (ت505هـ) من قوت القلوب، كما استفاد أيضاً من المحاسبي والجنيد ولاسبلي على حد قوله[8] وظهرت آثار قوت القلوب في إحياء علوم الدين[9] وربما من خلالها قرب التصوف إلى جماهير المسلمين. وقد ترك المكي أثراً بكتابه قوت القلوب في بعض مواضع فيما كتبه عبدالقادر الجيلاني (ت561هـ) وإن ظل الأخير صوفياً له شأنه ومريديه حتى يومنا هذا[10] وقد كان للمكي قدره ومكانته عند السهروردي البغدادي (ت632هـ) بما استفاد في غير ما موضع في كتابه عوارف المعارف من قوت القلوب، فقد أودع صاحبه فيه كل شيء حسن[11] ولعل أفضل شهادة للمكي من الصوفية هي شهادة ابن عربي الفيلسوف الصوفي الكبير (ت638هـ) فقد ذكره في غير ما موضع من مؤلفاته بأنه من سادات أهل الذوق[12] شأنه شأن شيخه التستري

فهو من أهل التحقيق عنده[13] لكن حظ المكي من الفضل لم يكن كذلك عند الفقهاء فقد شدد النكير عليه ابن الجوزي الفقيه الحنبلي (ت597هـ) لأن كتابه قوت القلوب فيه من الأحاديث الباطلة ما لا تستند إلى أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوعات، إضافة إلى ما فيه من الاعتقاد الفاسد[14]، وقد شايعه في رأيه الفقيه الحنبلي ابن تيمية (ت728هـ)، وإن تردد فقوت القلوب عنده أفضل من الإحياء للغزالي لأن صاحبه أعلم بالحديث والأثر وكلامه أجود تحقيقاً وأبعد عن البدعة، مع أن ما فيه كما يقول أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء فاسدة[15] .

ثانياً : الطريق إلى الله عند أبي طالب المكي :

فإذا غضضنا الطرف عن هذا كله، وانتقلنا إلى بيان ماهية الطريق إلى الله عند المكي فإن أول ما يتعين أن نؤكده بداية هو أن منهجه ينصرف لبيان طريقته في الوصول إلى المعرفة بالله معرفة قوامها الشهود أو المكاشفة وكما هي عند كل الصوفية على اختلاف مشاربهم، إذا ليس لهم مطلوب ولا مقصود إلا الله تعالى[16].

وإذا كان الطريق الصوفي قوامه العمل لا النظر العقلي من حيث استناده إلى المجاهدات والرياضيات طلباً للوصول إلى المعرفة بالله بوصفها أشرف الغايات عند كل الصوفية، فهم لذلك يرونه خصوصية لنفسهم دون غيرهم، إذ هم أهل الوصال والناس جلهم أهل الاستدلال[17] من حيث يعولون على العقل، ولا كذلك الصوفية، فالمعرفة عندهم أداتها القلب[18] بعد تصفية

النفس من علائقها البدنية، ليصبح القلب أهلاً لتلقي المعرفة عن الله وبالله لذلك كانت طريقة الصوفية أو منهجهم[19] تستلزم قوة الإرادة واستفراغ كل الطاقة طالباً للوصول إلى هذه الغاية، لذلك تنوعت الوسائل، فكان الطريق إلى الله بعد الخليقة[20] وتلك إشارة لطيفة، لأن اختلاف المسالك راحة للسالك على ما أراد من بلوغ الأرب والتوصل إلى المراد[21] من حيث إن قوام الطريق يتطلب المقاساة وذلك مرهون بقدرات كل شخص واستعداداته، ولذلك تنوعت طرق الأولياء على ما يقول بعضهم لتعدد الاستعدادات[22] وذلك لا يقدح في طريقتهم إذا الوسائل تتعدد، بينما الطريقة واحدة، وحق من هذه الحيثية اعتبار التصوف تجربة ذاتية[23] وان هناك صوراً من التجربة الدينية بعدد المتدينين، وكل هذا يرتد إلى قدرات كل شخص ومواهبه[24] ومن ثم صارت معارفهم عسيرة الفهم على غير من سلك منهجهم أو طريقتهم، لأن ذلك مما لا ينال إلا بالذوق، فكل واحد ينطق بحقيقة ما وجد، ويصدق عن حاله، ويصف ما ورد على سره ينطقه ومقاله[25] .

وفي ضوء هذا يمكن فهم حقيقة طريقة المكي ووسيلته في أن يكون العبد ولياً أو بدلاً مقرباً ليحظى حينئذ المعرفة بالله حين يكون الحق سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها[26] كما جاء في الحديث، وهو أصح حديث يذكر في الولاية أو حق الأولياء[27] .

وينبني على ما تقدم أن المريد[28] إذا أراد الوصول إلى هذه الدرجة فعليه أن يحكم أساسه، وإقامة هذا الأساس وبنيانه وقوة أركانه هي عند المكي الجوع والسهر والصمت والخلوة[29] ليرقى في مقامات الموقنين، حينئذ سيكون ولياً وينال مقام المعرفة وشهود التوحيد. ولكن لابد للمريد من خصال سبع

ليكون أهلاً في اجتياز الطريق ليستحق هذه المرتبة هي الصدق في الإرادة وعلامته إعداد العدة، ولابد له من التسبب إلى الطاعة وعلامة ذلك هجر قرناه السوء ولابد له من المعرفة بحال نفسه وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس ولابد له من مجالسة عالم بالله وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه، ولابد له من التسبب إلى الطاعة وعلامة ذلك هجر قرناه السوء ولابد له من المعرفة بحال نفسه وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس ولابد له من مجالسة عالم بالله وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه، ولابد له من توبة نصوح ..، وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى فيما كانت النفس راغبة فيه، ولابد له من طعمة حلال لا يذمها العلم ..، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع ولابد له من قرين صالح يؤازره على ذلك وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان ثم يستعين على هذه السبع بأربع هن أساس بنيانه وقوة أركانه أولها الجوع ثم السهر ثم الصمت ثم الخلوة، فهذه الأربع سجن النفس[30] .

فإذا دققنا النظر في أوصاف المريد أو خصاله كما ذكرها المكي ثم فيما كتبه في قوت القلوب، وجدنا أن عدة المريد ليكون بدلاً وينال المعرفة بحسب قوام طريقته يرتكز في أربعة مراحل هي :

1- معرفة الأصول .

2- مجاهدة النفس وطهارة الباطن .

3- الترقي في المقامات .

4- الولاية أو البدلية .

ومن ثم يقتضي المقام أن نتوقف عند كل واحده من هذه المراحل لبيان أهميتها في الطريق إلى الله عند المكي الذي جعلناه نموذجاً :

1- معرفة الأصول :

فأول ما يتعين على المريد بعد صدق الإرادة في طلب الحق تعالى أن يحكم أساسه ولا يتأتى هذا إلا بالعلم كما جاء في حديث رسول الله لأنه قال " طلب العلم فريضة على كل مسلم[31] " وهذا العلم الذي أشار إليه الحديث وحث على طلبه وجعله فريضة هو عند المكي علم الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام، من حيث لم يفرض غيرها، وحيث كان العمل لا يصح إلا بعلمه، فأول العمل العلم به فصار علم العمل فرضاً ..، ولما لم يكن من الأعمال إلا هذه الخمس فصار طلب علم هذه الخمس فرضاً لأنه فرض الفرض، وعلم التوحيد داخل فيها .. "[32]. وقد حذا السهروردي البغدادي (ت632هـ) حذو المكي تماماً فأخذ بكلامه ونصه[33] ومن ثم فطلب المعرفة عن الله لا يكون عند المكي إلا بإحكام هذا الأساس، فصار العلم الذي لا غنى للمريد هو علم الظاهر قبل علم الباطن، ولابد من ذلك، فهما عنده لا يستغني أحدهما عن الآخر بمنزلة الإسلام والإيمان، كل منهما يرتبط بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن الآخر[34] .

فالطريق إذا لا ينفك عن طلب العلم بأحكام الإسلام أو شريعته أو بعبارة أدق العقيدة والشريعة معاً، وإن جعلهما المكي بمعنى واحد لما أدخل التوحيد وهو العقيدة في الشريعة من حيث هي أحكام العبادات والمعاملات وجعل العلم بهذا فريضة الفرائض لمن طلب علم الباطن أو المعرفة عن الله، ومن تكلم في طلب علم الباطن على غير قواعد العلم الظاهر وأصوله، فذلك

من الإلحاد في الشريعة والوليجة بين الكتاب والسنة على حد قوله[35]. ويؤكد المكي على ضرورة إحكام علم الشريعة قبل طلب الحقيقة، فالاختلاف في علم التوحيد ومعرفة الصفات ضلال وبدعة والخطأ في علم الظاهر مغفور[36]. والمكي هنا في تأكيده على طلب العلم بهذا المفهوم يحذو حذو شيخه التستري إذ لم سئل عن الحلال قال طلب العلم[37] .

لكن المريد يلزمه الأمرين معاً، كشرط من شروط الطريق حتى لا يكون معتقد البدعة ولا مقيماً على كبيرة ولا آكل الحرام ولا طاعناً على صالح السلف[38] وفي سبيل ذلك الطلب نصح المكي مريده بمصاحبة عالم صالح ليصحح له الأصول ولا مشاحة في ضرورة ذلك عند المكي فهو قاعدة في أصول الطريق، فالتلمذة لمن سلك طريق الله كما يقول القشيري تجعل السلوك في طريق الله أسرع[39] لأن أخذ العلم من المشايخ أتم من أخذه من دونهم[40] ولابد كذلك من القرين الصالح ليكون معيناً له وحافزاً على العمل والطاعة، ومن ثم فلا يصح مؤاخاة مبتدع ولا محبة فاسق[41]. ولا تكتمل الأصول في تصور الطريق عند المكي – كما هي عند غيره من الصوفية – إلا بمعرفة النفس واكتشاف آفاتها وغوائلها، فمن حرموا من الوصول إلا من ضيعوا الأصول، ولذلك فأفضل شيء للعبد بعد علم الظاهر معرفته بنفسه ثم إحكامه لحاله التي أقيم بها[42] وهذه المعرفة ركيزة أساسية للمريد أو بالأحرى خصلة من خصاله، في ضوء طريقته ومن ثم فمن يرد أن يكون بدلاً فلابد له كذلك من معرفته بنفسه، وعلامته استكشاف آفات النفس بوصفها حجاباً يحول بينه وبين ربه. ومن ثم فمعرفة النفس بهذا المفهوم بداية اليقظة الروحية والانتباه من الغفلة ليكون المريد موصولاً بربه.

فالنفس عند المكي كما هي عند أغلب الصوفية مصدر كل الآفات وسبب الغفلة التي تقطع الطريق على العبد في طلب الحق، فذلك دأبها وديدنها لأنها في أصلها مجبولة على الحركة والسكون في آن واحد فتلك طبيعتها المطبوعة بها منذ خلقتها إن صح التعبير. فهي مجبولة على الحركة فلا تكف ولا تهدأ في طلب حظوظها وشهواتها، وفي ذات الوقت مأمورة بالسكون وهو ابتلاؤها لتفتقر إلى مولاها وتبرأ من حولها وقوتها[43] وقد لزم النفس بحكم هذه الخلقة أربع جبلات هي أصول لكل ما يتفرع من هواها، كلها تتلازم بعضها عن البعض، وتقف حائلاً في طريق العبد إلى ربه، ومن ثم حق على مريد الآخرة أو بالأحرى من يرد أن يكون بدلاً أن يعرف تلك الجبلات ما دامت هي منشأ كل الآفات. فالأولى جبلة الضعف وذلك من مقتضى التراب مادة خلقتها لقوله تعالى " **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ** "[44] فلزم عن هذا ضعفها ووهنها لقوله تعالى " **وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا** "[45] وقوله تعالى " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ** "[46] فارتد الضعف إذاً إلى مقتضى طبيعتها. والجبلة الثانية البخل وتتولد من الطين لقوله تعالى " **بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** "[47] ولهذا تكبر الشيطان ولم يسجد لآدم لما رأى نفسه مخلوقاً من مادة لطيفة هي النار وليست كثيفة كالطين فقال " **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** "[48] وقد لزم من بخلها الحرص والأنانية والشره وحب التملك مع أنها لا تملك من أمرها شيئاً لقوله تعالى " **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** "[49]. والثالثة هي الشهوة وذلك حظ النفس أو بعبارة أدق وصفها بحكم جبلتها وموجبة الحما لقوله تعالى " **قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** "[50] فلما كان ذلك كذلك فقد لزمتها الحركة،

فلا تكف عن الجري وراء شهواتها ولا تفتر همتها في طلب رغائبها المحمومة بحكم جبلتها، فنتج عن ذلك شراهتها وقسوتها. والجهل أخر أوصاف الإنسان وجبلته بحكم مادة الخلق أيضاً وهي الصلصال وإلا لتساوى مع الملائكة في كمال المعرفة والطاعة لله بحكم عنصرهم النوراني، وذلك الجهل يدفعه إلى التكبر والاستعلاء والطيش والتهور، وقد أشار الحق إلى جهل الإنسان فقال تعالى " **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** "[51].

وكان من نتيجة هذا كله أن ورثت النفس صفتين أساسيتين هما جماع هذه الجبلات الطيش والشره وطيشها من جهلها وشرهها من العجلة، فتولد من ذلك حرصها وطعمها. وكان ذلك سبب خروج آدم من الجنة، لذلك كان حب الدنيا رأس كل خطيئة[52] ومن ثم كانت النفس لا تألف الحق أبدا والطاعة خلاف سجيتها وضعفها ويتولد أكثر ذلك من متابعة الهوى وإتباع الشهوات[53]. فلما ابتليت النفس بهذه الجبلات ورثت عنها كل الصفات المذمومة والخصال الدنيئة، وتوزعت صفاتها بين منازعة لأوصاف الربوبية ومشاركة لأخلاق الشياطين وطبائع البهائم. أما صفات الربوبية فالكبر والتجبر وحب المدح وطلب العز والغنى وكل ذلك لجهلها بنفسها أما أخلاق الشياطين فالخداع والحيلة والمكيدة أما طبائع البهائم فهي اللهفة المحرومة نحو المأكول والمشروب والمنكوح ، ثم هي في ذات الوقت – كما يقول المكي – مطالبة بأوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل لتحقق بذلك سكونها وتبرأ لخالقها ، وتخلص من بلائها ، وأني يكون لها ذلك عنده إلا لم يتداركها المالك على حد قوله " [54] ، فما لم يتنبه الإنسان إذا إلى معرفة نفسه ويتفقد مواطن ضعفها ويستكشف آفاتها ، لزمته الغفلة فكانت حجابا يحجبه عن ربه لجهله بنفسه ، فتصيب كل واحد من الجهل على قدر نصيبه من الغفلة ، ونصيبه من

الغفلة على قدر حبه من الدنيا على قدر الهوى وقوة الهوى على قدر سلطان النفس وكل ذلك من ضعف اليقين وضعف اليقين على قدر كثافة الحجاب والبعد بينه وبين الله ، والبعد ميراثه الكبر وقسوة القلب[55].

فموطن الداء إذا كامن في النفس ، فتلك أوصافها وخصالها المذمومة وشهواتها المحمومة ن وخطر هذا كله لا يقف حده عند حد النفس ، بل يمتد إلى القلب ، لذلك يلزمه طهارة الباطن ، ليصفو المريد بقلبه وقلبه ، ولا يتأتي هذا كله إلا بمخالفة النفس لينعتق القلب من رقها وعبوديتها .

ولما كان هذا شأن النفس وجبلتها وما ورثته من صفات وما لزم عنها من آفات ، فقد طهارتها ليكون القلب طاهرا ، لأن صفاءه مرهون بذلك ، من حيث هي محل الشهوة ومكان البلوى [56] ولذلك فقد اعتادت اللذة والشهوة ، فلزم مجاهدتها وتأديبها ، ولا يكون ذلك إلا بفطمها مما اعتادت عليه [57] وذلك عن طريق مجاهدتها وطهارتها مما لزمها من أوصاف وما ركب فيها من جبلات ، لذلك كانت طهارة الباطن شرطا لابد منه لكي يقطع المريد طريقه إلى ربه بالقلب والقالب ، إذ لا يكون المريد بدلا حتى يبدل بمعاني صفات الربوبية صفات العبودية ، وبأخلاق الشياطين وأوصفها المقربين ، وطبائع البهائم أواف الروحانيين من الأذكار والعلوم فعندها كما يقول المكي يكون بدلا ....." [58] .

وكلام المكي إشارة لطيفة لأنها تكشف عن قوام منهج الصوفية جميعا ، بوصفه منهجا تطهريا محضا يقوم على التصفية ليتحقق للنفس صفاتها وللقلب طهارته من كل الشهوات المحمومة والأخلاق المذمومة ولتكمل في ذات الوقت بأضدادها من أوصاف العبودية فيرتقي المريد إلى أعلى مراتب الكمال أو ما يمكن تسميته بأخلاق تكيل الذات ، وحينئذ يبلغ كما قال المكي أعلى مراتب

الروحانيين وينال المعرفة عن الله لصفاء باطنه ، ولذلك كانت مجاهدة وطهارة النفس والقلب في منهج الصوفية عملية شاقة وتستلزم صدق الإرادة من المريد [59] إذا لو تحقق له ذلك لزمته أوصاف العبودية وكان خالصا من المعاني التي هي بلاؤه من صفات الربوبية وحينئذ يدخل في عداد النفوس المرحومة المطمئنة المرضية وهم عباد الله أهل العلم والحكمة [60] وهي النفوس التي رجعت إلى مولاها وهي النفوس المطمئنة لقوله تعالى" **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً** "[61] .

وسبيل المريد في مجاهدته لنفسه وطهارته عن علائقها ، أن يضيق عليها ، فلا يعرضها بهواها ، بل يحبسها عن معتادها وبلاها ، وما جبلت عليه من أوصاف وطبائع ، وإنما يحصل ذلك يقطع أسباب هواها وحبسها عن مواد شهواتها [62] فأعوان الأشياء على المخالفة للنفس ترك الشهوات [63] وحق قول التستري شيخ المكي وشيخ شيخه ابن سالم ما عبد لله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى [64] ولكي يحقق المريد هذا لابد له من محاسبته لنفسه في كل ساعة ومراقبتها في كل وقت عند كل همة مخاطرها ، فإن ترك المحاسبة ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل وهؤلاء هم عند المكي الغافلون وهو الخاسرون [65] ويتحقق ذلك كمت يقول المكي حين يقف المريد عن حضور الهمة وابتداء الحركة ثم يميز الخاطر وهو حركة القلوب والاضطراب وهو تصريف الجسم فإن كان ما خطر خاطر من الهمة يقتضي نية أو عقدا أو فعلا لله سارع في تنفيذه ، وإن كان لعاجل دنيا أو عارض أو هوى أو غفلة نفاه أو سارع في نفيه [66] .

فالمحاسبة إذن تقويم داخلي من المريد لنفسه ، ومجاهدة دائمة لتخلص كل أعمالها لله ، غذ المحاسبة هي النظر والتثبيت بالتمييز لما كرهه الله عز وجل فيما أوجب على وجه التدبر في مستقبل الأعمال ومستديرها[67] إذ العبد مأمور بذلك لقوله تعالى " **وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** " [68] فإذا أحكم المريد معرفته بنفسه سهل عليه مجاهدة النفس ورياضتها ، وإنما يكون ذلك عنده بالرجوع والسهر والصمت والخلوة فقد صار الأبدال أبدالا عند التستري شيخه [69] أبدالا بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة ومن ثم يقتضي المقام تفصيلها كلها الوسائل أو أركان الطريق التي تحقق طهارة الباطن .

2- مجاهدة النفس وطهارة الباطن :

والجوع أول ركن من أركان الطريق عند المكي يصل المريد منه ويبقيه الأركان الأربعة إلى المرتبة البدلية ، وكما أشار بها التستري شيخه . وعلة تفضيل الجوع على الشبع عند المكي ترتد إلى أن الشبع يولد الغفلة فتصبح مانعا عن يقظة العبد وانتباهه مع ربه ، وإنما يجئ الغفلة من انسياق العبد في تلبية مطالب النفس حظوظها ومن ثم فلا سبيل إلا تأديبها ، لأن شهوات النفس كما يقول المكي لا أخر لها [70] . ويؤكد ذا ابن سالم شيخ المكي بقوله "إذا أعطيت البطن حظه من الشبع طلبت كل جارحة حظها من اللهو فجمعت بك النفس إلى الهلكة ، إذا منعت البطن حقها قصرت عنك كل جارحة عن حظها فاستقام القلب لذلك" [71] .وإذا كان الأمر كذلك ، فلا سبيل إلا الجوع ليكون بديلا للشبع ليقوم بمهمة تهذيب النفس وتصفيتها عن كدوراتها وشهواتها ذلك لأن " الجوع ينقص من دم القلب فيبيضه ، وفي بياضه نور، ويذيب شحم الفؤاد وفي ورقته

مفتاح كل خير ، لأن في القسوة مفتاح كل شر، إذا نقص دم القلب ضاق تمسك العدو منه، لأن دم القلب ضعف سلطان العدوة فيه " [72] .

فصلاح القلب مرهون إذا بالجوع لأن فيه رقته وفي رقته صفائه ومن ثم فلا عجب أن يجعله الغزالي وينص كلام المكي – مفتاح المكاشفة[73]. ويستند المكي فيما قاله في إيثار الجوع إلى قول النبي : " **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش**"[74] وفي الخبر مكتوب يا موسي لا تأكل العروق، فإنها مأوي كل نفس، وهو الذي جاء به الخبر أيضاً عن عيسي عليه السلام في قوله يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم وعطشوا أجسادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم تري الله عز وجل [75] وتفسير هذا عند المكي يكون بحقيقة الزهد وصفاء القلب [76] لكن موضع الغرابة في إيثار المكي للجوع علي الشبع، ترتد عنده إلي أنها بدعة حدثت بعد الرسول هي الشبع، لأن القوم لما شبعت بطونهم جمعت شهواتهم علي حد قوله [77].

والجوع عند المكي علامة علي زهد المريد في الدنيا وشهواتها الفانية طلبا للآخرة ولذاتها الباقية إذ الجوع فيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفي ذلك حية القلب وصلاحه [78] . فكأن الجوع وسيلة مضادة لتقويم النفس ليصفو القلب والباطن، إذ الجوع كما يقول الهجويري يعمر الباطن والشبع يعمر البطون، وتبعا لذلك فمن قضي العمر في عمارة البطون كيف يستوي مع من يقضي عمره باطنه علي حد قوله [79]، لذلك صار للجوع قيمة عند المكي ليبلغ العبد به مرتبة البدلية أو الولاية، فلا عجب أن نجد سهلا يؤكد علي أن من لم يصبر علي الجوع والصبر لم يتحقق بهذا الأمر [80] لهذا شدد

المكي علي الجوع مجاراة لشيخه التستري فقد كان بدلا في نظره[81] فقد كان لا يأكل كما يقولون إلا مرة في كل خمسة عشر يوماً وعندما يلقي شهر رمضان لا يأكل حتى يجئ يوم العبد بل أنه يوم مات صائماً لم يأكل شيئاً كما يوم ولد تماماً !! [82]

ولا غرابة أن يكون هذا صنيع التستري ومن جاراه، فهذا الزمان– علي حد قوله – لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح النفس بالجوع والصبر والجهد لفساد ما عليه أهل الزمان [83] فليس غريبا إذا يكون شأن الجوع عند المكي وشيخه وغيره من الصوفية بهذه الصورة، فيجعلونه وسيلة لمرتبة البدلية فيتعرفون بها علي ما لا يعرفونه غيرهم من الخلق، فمن طوي أربعين يوماً من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت[84]. وقد طبق المكي بقسوة رياضة الجوع تماماً كما طبقها شيخه التستري حتى قيل أنه هجر الطعام زماناً واقتصر علي أكل الحشائش المباحة فاخضر جلده [85] وتلك طريقة السهلية في الارتقاء بشأن المريدين ليصلوا إلي درجات الكمال فيكونوا أبدالا[86] .

وشأن ابن عربي شأن المكي في نظرته إلي الجوع، فقد وجدنا عنده أن الأبدال لم يكونوا إبدالا كما يقول إلا بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت وهي الجوع والسهر والصمت والعزلة [87] ولذلك فلابد من الجوع عنده للسالك والمحقق فيه ينال المريد أعظم الأحوال للسالكين والأسرار للمحققين[88] وسبب ذلك عنده أن الشبع داع إلي الفضول، وإذا شبع البطن طغت الجوارح، وتصرفت في الفضول من الحركة والنظر والسماع والكلام وهذه كلها قواطع عن المقصود[89] .

بيـد أننـا لا نجـد حاجـة لأن يكـون الطريـق إلـي الله مرهونـاً بـالجوع وبالكيفية التي يحددها أبو طالب المكي وغيره من الصوفية لأن وسطية الإسلام لا تجعل روحانيته بهذه الوسيلة وإلي هذا الحد إذ كيف لا يأكل الرباني أربعين يوماً والصمداني ثمانين يوماً[90] . لكن الأمر عند الصوفية جائز وجوازه نظرة تشاؤمية إلي الدنيا حتى أن الجوع لو كان يباع في الأسواق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا ذهبوا إلي السوق أن يشتروا غيره[91] . ولا عبرة بالتشبه بالصوفية في تفصيل الجوع إذ لم يكن جوع الصحابة ولا التابعين وغيرهم جوعاً اختيارياً بل كان جوعاً اضطراباً، ومن ثم فمن دعا الناس إلي غير هذا الجوع، فقد عصي الله كما يقول المحاسبي (ت243هـ)، وهو الذي غلط فيه خلق كثير علي حد قوله [92] . ولا عبرة بعد ذلك بما يتخفف به أبو طالب المكي من أن جوع المريدين لا يكون إلا بهذه الطريقة، أما جوع العارفين، فليس في جوعهم تحرير وتقسيم، لأنهم إذا اطعموا تقللوا وشكروا وأن رأوا له مكاناً آخر آشروا وإن جوعوا عملوا وصبروا[93] .

والجـوع يـؤدي إلـي السـهر ولا كـذلك الشـبع، فكثـرة النـوم سـبب للغفلـة ومدعاة للكسل، لذلك جعله أبو طالب المكي تالياً للجوع ولازماً عنه دعواه في ذلك أن من سهر أربعين خالصة كوشف بملكوت السماء[94]، لذلك كان وسيلة للوصـول بالمزيـد غلـي مرتبـة البدليـة، إذ العلمـاء لا ينـامون إلا عـن غلبـة بعد طول سهر بالقيام مكاشفة لهم وشهود وتعريف منه وورود [95]، فمرتبة البدلية بوصفها نبع المعرفة عند المكي لا تكون إذا إلا بالجوع وكذلك بالسهر، لأنه ينير القلب ويجلوه، وفي استتارته معاينة الغيب وفي جلائه صفاء اليقين ......، وحينئذ يشهد الغيب بالغيب، وينكشف له عوار الدار ويظهر له بواطن الأسرار .... !! [96]

والسهر أيضاً شأنه شأن الجوع وسيلة لصفاء الباطن ودليل علي يقظة العبد وحضوره مع الله، ولا كذلك النوع فإنه يعني الغفلة، ومن غفل نام كما يقول الهجويري ومن غفل حجب [97] ومن ثم لزم لرفع الحجاب ليكون العبد قاب قوسين أو أدني من رب العباد، وحينئذ فلا ضير أن يكون السهر وسيلة عند المكي لبلوغ مرتبة الدلية أو الصديقية، فما كان الصديقون إلا بالجوع والسهر [98] بل ولا حرج أن يكون قوله تعالي : " **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** " [99] " دالاً علي ذلك، فقد فهم من الآية إنها إشارة بالصوم علي قيام الليل علي حد قوله [100] ولا ضير بعد الذي تقدم، أن يصبح السهر عند الغزالي كما هو عند المكي وسيلة للمعرفة عن الله لمن أراد الطريق الأبدال، لأن النوم يغشي القلب ويميته، إلا إذا كان بقدر الضرورة، فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب علي حد قوله [101] .

وهكذا فلا مفر لمن أراد أن يكون بدلاً ليكون عارفاً بالله عند ابن عربي إلا بأن يجعل السهر ركنا من أركان طريقه وكما تلقف تلك الأركان عن أبي طالب المكي، ولذلك فقد لزم للمريد السهر، وذلك إنما يحصل عنده طريق الجوع، لأن المعدة إذا لم يكن بها طعام ذهب النوم، فصار السهر عنده سهرين، سهر العين وسهر القلب، وسهر العين رغبة في بقاء الهمة في القلب لطب المسامرة [102]. وظاهر مما تقدم، أن السهر يحقق حضوراً ومزيداً من اليقظة للمريد، ومثل هذا الحضور والتركيز الباطني يسهل للقلب طريقة لتلقي المعرفة عن الحق تعالي . وربما يعزز هذا ويدعمه وسيلتهم الأخرى وهي الصمت كركن من أركان طريق البدلية.

فالصـمت ضـرورة لمـن أراد طريـق الآخـرة أو بعبـارة أدق لمـن أراد أن يكون بـدلاً عند المكـي كما عند شيخه، لأن الصـمت ضـده الكـلام، وهـو آفـة ينبغي علي المريد ان يخلص منها لئلا يقطعه عن الله تعالي لأن كثرة الكلام دليل علـي قلـة الـورع وعدم التقوي، وكثرة المطـالبين وتعلـق المظلـومين، وكثـرة الأشـهاد من الأمـلاك المكاتبين ودوام الأعراض عن الملك الكريم، لأن الكـلام مفتـاح كبائر اللسان فيه الكذب والغيبة والنميمـة والبهتـان .... [103] ولأجل كل هذه الآفات وغيرها، فقد لزم الخـلاص منها، وقطـع الطريق عليها، لئلا تكون حجاباً يحجب المريد عن ربه، ففي وجود هذه الآفات في قلب العبد...... شتات قلبه، وفي شتاته تفريق همه، وفي تفريق همه سقوطه من مقام المقربين "[104]. ولما كان مراد المريد هو الحق لا الخلق، فقد لزمـه الصـمت ليكون مـع الحق خالصاً من كل هذه الأوصـاف المذمومة، إذ لو كان قلبه خالصـاً منها، لصـار وعاءاً للمعرفة عن الله، لأن الصمت فيما يقول المكي يلقح العقل ويعلم الورع ويجلب التقوى ويجعل الله عز وجل به للعبد بالتأويل الصـحيح والعلم الرجيح مخرجان ويوفقه بإيثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد [105] .

وفـي كـلام المكـي ما يبرر قناعتـه بالصـمت كوسيلة لبلوغ المريد مرتبـة البداية، لأن الصـمت يحقق لـه حينئذ فائدتين، أولاهما خلاصـة من كل الآفات المذمومة للسان، وثانيهما لأنه سبيل للمعرفة عن الله وكمال العمل عنها بطبيعة الحال . لهذا السبب صار الصمت ضرورة أساسية تحقق للمريد صفاء الباطن، ولـذلك جعلـه ابـن عربـي ركنـا مـن أركـان طريـق الأبـدال، لـيخلص اللسـان مـن آفاتـه، فيصمت وليصمت القلب كذلك عن كل خاطر يخطر لـه فـي كون مـن الأكوان، فإن تحقق لمريد الصمتين معاً فحينئذ يتجلي له ربه [106] .

والخلوة هي الركن الرابع من أركان الطريق عند أبي طالب المكي، وهي وسيلة لمريد ليقطع بها كل ما يحول بينه وبين الحق من الشواغل، ليكون بقلبه وقالبه لله تعالي وحده، ومن ثم فهي دليل علي صحة قصد المريد وقوة إرادته وخلوصها للحق وحده، فالخلوة عند المكي تفريغ القلب عن الخلق وتجميع الهم بأمر الخالق، وفيها تقوية للعزم، إذ في مخالطة الناس وهن العزائم وشتات الهمم وضعف النية (107) . وكلام المكي غاية في الأهمية فيما يتعلق بالهدف من الخلوة عنده وعند بقية الصوفية، لذلك لأن في مخالطة الناس حجاب وتشتيت لهمة المريد الطالب لطريق الآخرة، بينما المطلوب صحة النية وقوة الإرادة، فمن طلب الحق لزمه الإعراض عن لحق في منطق الصوفية فمن لم يؤثر الخلوة فما صحت نيته ولا صدقت همته(108). وبالإضافة إلي ذلك، فإن الخلوة ضرورة للمريد لكي تسد الطريق علي إنكباب النفس علي الأمور الدنيوية فيكون ذلك حجاباً بينه وبين مراده، وحينئذ فبخلوته مع الحق " تقل الأفكار في عاجل حظوظ النفس – كما يقول المكي – لفقد مشاهدتها بالأبصار، لأن العين باب القلب ومنها يدخل آفاته وعندها توجد شهواته ولذاته " (109) .

ومعني هذا أن الخلوة ضرورة للمريد لسد الطريق علي كل شاغل يشغله عن الله فيكون ذلك داعياً للتركيز الباطني، في غير حظوظ النفس ومرادات الدنيا، وحينئذ تجلب له الخلوة أفكار الآخرة وتجدد الاهتمام بها لما شهد من الإيقان، وتنسي – كما يقول المكي – أذكار العباد وتواصل ذكر المعبود (110) ولا يفترق الأمر كثيراً في شأن الخلوة ، عند الغزالي، فيها يتم دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، بوصفهما دهليز القلب، والقلب في حكم الحوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة من أنهار الحوض ......، ولذلك فإن مقصود هذه الرياضة عنده تفريغ الحوض من تلك المياه (111) ومن الجلي أن في ذلك مفتاح

المعارف وسب المكاشفة تماماً كما هو عين الأمر في الجوع والسهر والصمت .

ولكن الخلوة لا ثمرة لها إلا بصدق العزيمة وإخلاص القصد من المريد وإذا لم يكن ذلك كذلك فلا فائدة في خلوته أو عزلته عن الناس بوصفهم قاطعاً من قواطع الطريق، ومن ثم فالمريد لا يكون صادقاً يجد في الخلوة من اللذة والحلاوة ما لا يجده في الجماعة، ويجد في السر من النشاط ما لا يجده في العلانية، ويكون أنسه في الوحدة، وروحه في الخلوة وأحسن أعماله في السر ..... " [112] . وكلام المكي يجعل الخلوة وسيلة لفراغ القلب والقالب مما سوي لله، وحينئذ يكون المريد مقرباً أو بالأحرى ليكون ولياً او بدلا من الأبدال، إذ لا يتسنى الوصول إلي هذه المرتبة بغير ذلك، لأن سهلاً شيخه قد دعم الفكرة واتي علي الغاية، فمخالطة الولي للناس عنده ذل وتفرده عزل، إذ لم ير في ما رآه وليا لله إلا منفرداً !![113].

ومادام الولي لا يكون ولياً إلا بهذه الحيثية بالذات أعني الخلوة وكما علمه إياهاً شيخه التستري بل شيخ شيخه ابن سالم، فعين الأمر كذلك عند ابن عربي من حيث ضرورتها، وكما نبهه إليها المكي. لذلك صارت الخلوة عنده ركناً للحصول علي المعارف الإلهية والمكاشفات الربانية، فمن أراد الوصول إلي حضرة الحق فلابد له من إيثار العزلة عن الناس وإيثار الخلوة علي الملأ [114] ذلك لأن فائدتها عنده خمسة أنواع من المعارف هو الوقعات والمشاهدات والمكاشفات والتجليات والوصول [115] .

3- الترقي في المقامات :

بيد أن هذه المجاهدات والرياضات الروحية رغم قسوتها وفائدتها في تحقيق صفاء باطن المريد وحصول المعرفة عنها، لكنها ليست كافية وحدها عند المكي إذ يلزم المريد لتكتمل له مرتبة البدلية أن يترقي في مقامات اليقين، وهذا الترقي يوجبه عنده علو مقام الإيمان علي مقام الإسلام، ومن ثم فمن كمال الإيمان أن يكون المريد منصفاً بكمالاته كدوام التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف وغيرها من لوازم الإيمان وحينئذ يصبح موقنا وفي الإيقان مزيد عرفان .

والتوبة عند المكي أول مقام من مقامات الموقنين، والكل مأمور بها من الله تعالى بخطاب العموم لقوله تعالى : " **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** "[116] وهي ضرورة لتحقيق طهارة النفس وتزكيتها وطلب من الله لعباده المؤمنين جميعاً أن يخرجوا من هوى النفس ومن الوقوف مع الشهوات عساهم أن يظفروا ببغيتهم في المعاد، ولكي يبقوا ببقاء الله عز وجل في نعيم لا زوال لهب ولا نفاذ، ولكي يفوزوا ويسعدوا بدخول الجنة والنجاة من النار[117] وهذا بعينه ما جعله الجيلاني عموماًًًًً لهذه التوبة[118] لأن الحق تعالى يحب التوابين يحب المتطهرين[119]. فدلت الآية على أنها ضرورة لكل مؤمن بل لكل مسلم، باعتبار أن الإسلام عام وخاص، ومن ثم فلا يمكن أن يستغني عنها أحد، لأنه لا يخلو عن غفلة وتقصير في العلم بالله[120]. فلما كان هذا شأن حال الإنسان وحقيقة نفسه، فقد لزمته التوبة كائناً ما كانت درجة إيمانه، ولهذا كانت التوبة مقاماً من مقامات المؤقنين الكاملين عند شيخنا المكي، بل كانت فرض عين في حق كل واحد بل لا يتغني عنها أحد من البشر بما فيهم الأنبياء عليهم السلام[121]، فلا جرم إذا صارت كذلك مقاماً رفيعاً من مقامات

الإيمان عند ابن تيمية (ت728هـ) إذ مهما بلغ إيمان العبد، فليس له أن يظن أن يستغني عن التوبة والاستغفار[122].

لكن التوبة لابد فيها من تمام الانقطاع عن الذنوب وإخلاص القصد لله وحده، ولا يتأتى هذا الأمر بتمامه وكماله إلا إذا كانت هذه التوبة هي التوبة هي التوبة النصوح، وهي التي أشار إليها الحق تعالى في خطاب الخصوص لما قال تعالى : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**"[123]. فقد دلت الآية الكريمة على أن هذه التوبة هي الخالصة لله وحده، وهي التي تحقق لصاحبها الاستقامة على جادة الطاعة من غير روغان إلى المعصية كما تروغ الثعالب ... وذلك يستلزم من العبد ألا يحدث نفسه بعدها إلى ذنب متى قدر عليه، وعليه في الوقت ذاته أن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه أو نفسه على حد قوله[124]. ولا تحصل التوبة بهذا الحد إلا لمن أتى الله تعالى بقلب سليم من الهوى خالص مستقيم على السنة، فإذا كان ذلك كذلك، فقد حقق هذا الأمر بتمامه، وختم له حينئذ بحسن الطاعة،وهذا هو معنى التوبة النصوح[125] وهو المعنى الذي شدد عليه المحققون في شأن التوبة ولزومها للعبد ورجوعاً منه باللسان والقلب والجوارح عما اقترفه من الذنوب، ومن ثم أكد التستري على أنه ليس أوجب على الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد عليها من فقد علم التوبة[126] ولذلك كان كمال التحقق بالتوبة أن يستعظم العبد ذنوبه لئلا يعاود الرجوع إليها مرة أخرى[127] .

ولا تقف أهمية التوبة عند المكي عند هذا الحد، بوصفها خلاصاً للعبد من كل ذنوبه وكل ما يقطعه عن الله، وإنما هي بالإضافة إلى هذا وسيلة

ارتقائه في مقام القرب من الله. وبلوغ مرتبة الولاية، فمن حققها بتمامها فحينئذ يصلح لمولاه فيحفظه كما يقول المكي وبتولاه بولايته[128] لقوله تعالى : **وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** [129]، وليس غريباً أن يكون هذا مكانتها عند الجيلاني، لأن الانتقال من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ثم الإيقان يقتضي ذلك، فطريق الولاية يستلزم هذا كله عنده، إذ لا يكون مع النفس والهوى بل مع الحكم لأمر الله[130] ولهذا السبب فقد حقت التوبة على من أراد الدخول في مرتبة الولاية، ليتطهر من دنس النفس باعتبارها محلاً للباطل والأهوية والشهوات[131] .

فالتوبة إذا دليل على تيقظ العبد، وانتباهه من غفلته، وقطع كل ما يحول بينه وبين الحق تعالى ليكون بقلبه وقالبه لله تعالى، ولهذا فإن التوبة تلزمه أن يداوم على محاسبة نفسه في كل وقت من أوقاتهن وإلا فقدت توبته معناها أو بالأحرى ميناها، ومن ثم ينبغي لأهل التوبة كما يقول شيخنا المكي أن يحاسبوا نفوسهم في كل طرفة عين، وأن يدعوا كل شهوة، ويتركوا الفضول، وهي ستة أشياء ترك فضول الكلام وترك فضول النظر وترك فضول المشي وترك فضول الطعام واللباس، ولا يقوى على ترك المشهيات إلا من ترك الشهوات على حد قوله[132] .

فإذا كان هذا هو حقيقة مقام التوبة وشرفها بين سائر مقامات الموقنين عند المكي وكذلك عند الجيلاني من بعده، فلا غرو أن تكون أصل كل مقام وقوام كل مفتاح ومفتاح كل حال، وأن تصبح كما يقول السهروردي البغدادي (ت632هـ) بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبه له لا حال ولا مقام له على حد قوله[133] وهي كذلك عند ابن عربي[134].

ولمكانه مقام التوبة في مقامات اليقين عند المكي، فإن الخلق يتفاوتون في نصيب كل واحد منهم وهم على أربعة أقسام أو مراتب : الأول: تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة، وهذا العبد هي النفس المطمئنة المرضية. والثاني : هو العبد الذي لا يسعى في ذنب ولا يقصده بل لا يهتم به، ولكنه قد يبتلي بدخول الخطايا عليه من غير قصد منه ولا تعمد ونفس هذا العبد هي اللوامة التي أقسم الله بها وهو من عباد الله المقتصدين والثالث: هو الذي يقرب من هذا الثاني في الحال كما يقول المكي لأنه عبد يذنب ثم يتوب ثم يعود إلى الذنب ثم يحزن عليه بقصد له وسعي فيه وإيثاره إياه على الطاعة، إلا أنه يسوف بالتوبة، ويحدث نفسه بالاستقامة ولكن لم يأت حينه، ولا ظهر مقامه، لأن الهوى يحركه والعادة تجذبه. والرابع هو أسوأ العبيد حالاً وأعظمهم على نفسه وبالاً وأقلهم من الله نوالاً، وهو من يرتكب الذنب ثم يتبعه بذنب مثله أو أعظم منه[135] .

ومقام الصبر ثاني مقامات اليقين عند شيخنا المكي، ويستند عنده لمكانة الصبر بشواهد القرآن لقوله تعالى " **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا** "[136] فقد دلت هذه الآية على أن الصابرين هو أئمة المتقين[137] وهذا بالفعل هو الذي أكده ابن تيمية (ت728هـ) لما جعل الإمامة في الدين موقوفة على أولئك الذي صبروا، ولذلك جعل الصبر مقاماً من مقامات الإيمان[138] يضاف إلى هذا أن الله تعالى قد شرف الصبر لما أضاف إليه بعد الأمر به[139] فقال تعالى " **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** "[140]، وزيادة على ما سبق، فإن الحق تعالى يقول " **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**"[141] فدلت الآية – فيما يرى المكي – على أنه تعالى قد ضاعف أجر الصابرين على كل عمل، ليس هذا فحسب بل رفع جزاء الصابرين فوق كل جزاء، فجعله بلا نهاية ولا

حد، الأمر الذي يجعله بالتالي – الصبر – من أفضل المقامات[142]. والعلة في زيادة أجر الصابرين ترتد عند المكي على أن تمام التحقق بالصبر يستلزم مقاساة النفس وتحملها المشاق على ما نزل بها أو على ما في طبعها، لذلك كان صبرها بالتالي دليلاً على كمال إيمانها ويقينها، لأن الصبر – فيما يرى المكي – أشق على النفس وأمر على الطبع لما فيه من الألم[143] .

ومقام الصبر عند المكي لا تتوقف قيمته عند هذا الحد، لأن فيه زيادة لكمال الخلق مع الخلق، لأن من تحقق بهذا المقام عنده موصوف بالتواضع والحلم وكف الأذى عن الخلق وكل ذلك من عزائم الأمور [144] فلا جرم بالتالي أن يكون الصبر عند الجيلاني أيضاً من كمال الإيمان، وأن يكون أساساً لكل خير، بل أساس النبوة والرسالة والولاية[145]، وهو لذلك من أعمال الأنبياء والأولياء[146]. وإذا كان للصبر كل هذه القيمة التي خلعها عليه الجيلاني والمكي من قبله، فلأن الحق قد نبه على ذلك وجعله من عزم الأمور لما فيه من المشقة، لأن الصبر يتضمن حبس النفس عن الهوى وكظم الغيظ وحسن الخلق، بالإضافة لما فيه أيضاً من صبر على عبادة الخالق، والصبر على إتيان الفواحش والصبر على المنكر والبغي وعن مجاوزة الحد بالكبر والإسراف في أمور الدنيا[147]. ولعل هذا هو الذي جعله عند ابن تيمية واجباً باتفاق جميع المسلمين[148]. ومن هذه الحيثية فإن الصبر مقام لا غنى عنه للعبد الكامل في إيمانه ويقينه، ولذلك صار لازماً له في كل عمل وطاعة يقوم بها، ولهذا يلزمنه أن يحققه ويأتي له على الوجه الأتم إن أراد مقامه وبلوغ منزلته، وإنما يحصل ذلك حين يصبر العبد على تصحيح النية وعزم العقود والوفاء بها حتى تصح كل أعماله[149]. ولا نزاع في أن المكي كان دقيقاً لما جعل الصبر على صحة النية والعزم هي لازما من لوازم العمل لأن العبد كما يقول ابن القيم

يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطع الفارع من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق[150] .

وحد الصبر وضروبه وتنوعها كما أشار إليها المكي يجعله مغايراً في مبناه وحقيقته لما خلعه عليه الصوفي المتفلسف ابن عربي إذ الصبر عنده من جملة المقامات المشروطة بالبلاء، بحيث إذا انعدم البلاء والمحنة، فقد معناه وحقيقته فإذا عاد البلاء وصبر الإنسان عليه كان حينئذ في مقام الصبر[151] فكأن الصبر عند ابن عربي مقام بدور مع البلاء وجوداً وعدماً إن صح التعبير ولابد من ذلك. ويلوح لي أن ارتباط الصبر بالبلاء خاصة، هو الذي خلع عليه قيمته كمقام لازم لكمال الإيمان من هذه الحيثية بالذات كان أكمل المؤمنين في إيمانهم عند أصدقهم في صبره على البلاء[152] لقوله تعالى " **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** "[153]. وإذا كان ابن عربي قد جعل البلاء لازما في تصوره مقام الصبر ولابد من ذلك، فإن المكي يضيف قبله جديداً لمقام الصبر شأنه شأن نظرته إلى بقية المقامات بوصفها تتولد عنده من بعضها البعض، أو بعبارة أخرى تثمر أحوالاً. ويبدو ذلك في كلام المكي عن مقام الصبر في قوله " واعلم أن المقامات أعلى من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين، وقد يكونان مقامين، فمن كان مقامه الصبر، كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام، ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه، فماله من مزيد لمقامه[154]. ولكن المكي مع ذلك يفضل الصبر على الشكر، لأن الأول – الصبر – حال من مقامه البلاء وأصل البلاء هو الأمثل فالأمثل بالأنبياء، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى

فلأن الصبر عنده أبعد من أهواء النفوس وأقرب إلى الضر والبؤس وأشد في مكاره النفوس وأنفر لطباعها وأشد مباينة لما يلائمها(155).

وما دام المكي يفضل الصبر على الشكر لما في الأول من المشقة على النفس، فقد لزم أن يأتي الشكر تالياً عنده لمقام الصبر في تصنيفه لمقامات المؤقنين، ويستدل عليه بقوله تعالى : " **مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** "(156) فقد قرن الله الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما العذاب(157) ثم إن الله قد أمرنا بالشكر وقرنه في ذات الوقت بالذكر(158) فقال تعالى " **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** "(159) ثم عظم الحق تعالى شأن الذكر فقال تعالى " **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** "(160) فصار الشكر من هذه الحيثية أكبر لاقترانه به ورضا الله تعالى بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه(161). وإذا كان المكي ألمعيا في ربطه بين مقام الشكر وتعظيم الله وبين دوام ذكر العبد لله تعالى، فإن هذه الرابطة بين الأمرين معاً هي التي أكدها ابن القيم (ت751هـ) لما جعل مبنى الدين على قاعدتين، الذكر والشكر معاً(162) .

وإذا كان المكي قد ربط بين الشكر وبين دوام الذكر لله تعالى، فإن يربط بينه كذلك وبين كمال التقوى، ويجعله مرهوناً بحصول التقوى والذي يدل على هذا عنده قول الله تعالى " **اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** "(163) فإذا حصل الشكر من هذه الجهة وكان ناتجاً عن التقوى فإنه يثمر كما يقول المكي حالين الأول أن يشكر العبد الله على المكاره وعند البلاء والشدائد ولا يكون كذلك حتى يشهد ذلك نعما. والثاني أن ينظر العبد إلى من هو دونه ممن فضل عليه في أممور الدنيا وأصول الدين، فيعظم نعمة الله تعالى عليه لسلامة قلبه ودينه وعافيته(164). وظاهر من كلام المكي أن الشكر عنده ليس مرهوناً بالشكر على

النعم فقط بل الشكر كذلك عند البلاء والمحن وحد الشكر بهذا المفهوم عند المكي يجعله مقاماً وحالاً ويجعله أيضاً مغايراً لما هو عليه عند ابن عربي في تصوره للمقامات لأن الشكر عنده من المقامات المشروطة بشرط وجود النعمة ولابد من ذلك بحيث إذا انعدم هذا الشرط فلا معنى لتحقق صاحبه بمقام الشكر (165) وليس الأمر كذلك عند شيخنا المكي أسلفنا بيانه .

ومما له أهمية في كلام المكي عن مقام الشكر ارتباطه عنده بالولاية، وقد فطن المكي إلى أهمية مقام الشكر من هذه الجهة، لما جعل الشاكرين في عداد الصالحين والمقربين والعالمين وهذه الأوصاف من أعالى مقامات اليقين(166) ومما يدل على ذلك عند قول الله تعالى " **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**"(167) وقوله تعالى " **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**"(168) ثم إن الحق تعالى قد قال في وصف القربين بوصفهم قلة **ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ** "(169). وإذا كان ذلك – كذلك – فإن ربط الشكر بالتقوى عند المكي هو الأصل الذي حاز به الشاكرون هذه المرتبة، لأن تقوى الله تعالى توجب محبته(170) لقوله تعالى " **بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**"(171) .

ومقام الرجاء رابع مقامات اليقين عند المكي. ودليله قوله تعالى "**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**"(172) لذلك كان الرجاء ضرورة للمؤمنين الموقنين شأنه شأن بقية المقامات عند المكي، بوصفه لازماً لقبول العمل وطلب المغفرة ذلك لأن حد الرجاء عند شيخنا المكي أنه اسم لقوة الطمع في الشيء، بمنزلة

اسم الخوف بوصفه اسماً لقوة الحذر عن الشيء، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء في التسمية، وأقام الحذر مقام الخوف[173] .

وأهمية كلام المكي عن الرجاء تكمن في أنه عنده يعد مقاماً جليلاً وحالاً شريفاً شأنه شأن كل مقامات الموقنين، ومن ثم فإنه لا يصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء على حد قوله[174] ومن هذه الجهة كذلك جعله الغزالي من جملة مقامات السالكين وأحوال الصالحين[175]. ويرتبط الرجاء عند المكي بمقام الخوف، ذلك لأن الأول بمثابة الأمل الذي يتعلق العبد به طالباً غفران ذنوبه أو قبول أعماله. لكن ذلك لا يتيسر للعبد إذا كان عارفاً بمقام الخوف ومتحققاً به، وإلا فلا معنى لرجائه ولا قيمة لخوفه. وحينئذ فمن لم يعرف الرجاء – كما يقول المكي – لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم في مقام الخوف، لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء على حد قوله[176] .

ونظرة المكي إلى الرجاء من هذه الجهة يجعله وثيق الصلة بمقام التوبة أيضاً، تماماً كما أنه وثيق بالصلة بمقام الخوف. ذلك لأن التوبة بوصفها عملاً للعبد تستلزم القبول من الله، وهذا يستلزم منه مداومة رجائه لله طلباً لمغفرته وقبول توبته. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن رجاء العبد لا ينفك أيضاً عن الخوف كما أشار المكي. ولو أن هذا لا يكون إلا لأهل الكمال في العلم والحياء، ومن ثم فلا عجب أن يؤكد المكي على أن رجاء كل عبد من حيث مكاشفته عن أخلاق مرجوة من معان كوشف بها من صفات مخوفة[177]. ولعله لهذا السبب صارت علامة صحة رجاء العبد عند المكي مرهونة يكون الخوف باطناً في رجائه. وبد من ذلك عنده، ليكون صاحبه متحققاً بمقام الرجاء، إذ لو تحقق العبد برجاء شيء خاف قوته لعظم المرجو في قلبه وشدة اغتباطه به،

وفي هذه الحالة لا ينفك في حال رجائه عن خوف فوت الرجاء، وحينئذ يصبح الرجاء ترويحات الخائفين على حد قوله المكي[178] .

وإذا كان الرجاء وثيق الصلة بمقام الخوف عند المكي، أو بالأحرى إذا كان كماله مرهوناً بمقام الرجاء ولا نزاع أن ذلك يرتد لكمال معرفته بالله وكمال خوفهم منه. ولهذا فمن تحقق بكل معاني الرجاء جميعها استحق أن يكون عند الله من المقربين، ومن كان له وصف من الأوصاف دون بقيتها فله مقام من الرجاء ولا أكثر من ذلك[179] .

بيد أن مكانة مقام الخوف لا تتوقف عند حد ارتباطه مقام الخوف عند المكي، وإنما تجعله أيضاً وسيلة في تزكية أخلاق المتحققين به، والارتقاء بسلوكهم مع الخلق. الأمر الذي يجعل من صاحبه خلوقاً مع الخلق، ذلك لأن من شأن تحسين الأخلاق من الخلق – فيما يرى المكي – وجميل الصبر عليهم، وحسن الصفح تقرباً بذلك إلى الله وتخلقاً بأخلاقه رجاء ثوابه وطمعاً في تنجيز وعده واتباعاً لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا غرابة في ذلك عنده فمن تمام مقام الرجاء ترك الأهواء الرديئة والشهوات المطغية ويحتسب في ذلك الذخائر العالية[180] .

وليس هذا هو المهم في شأن مقام الرجاء عند المكي، بل الأهم منه ارتباط هذا المقام عنده بمرتبة القرب والولاية من الله تعالى لعبده. ويمثلهم المكي هذا المعنى من قوله تعالى " **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** "[181] فقد دلت الآية فيما يرى المكي على أن الله طرق لأوليائه من القرب منه والوسيلة إليه الرجاء كما طرق الخوف منه إليها كذلك. فلا حرم إذا أن من

تحقق بأحكام الرجاء فقد استحق درجات أهل الرجاء، وهو عند الله من المتقين[182] وفصل الخطاب كما يقول المكي أن الخوف والرجاء طريقان إلى مقامين، فالخوف طريق العلماء والرجاء طريق العمل إلى مقام العاملين[183] .

فالخوف إذاً مقام رفيع من مقامات اليقين عند أبي طالب المكي، لأنه ألزم ما يكون لتمامية الرجاء من ناحية، ولأنه دليل أيضاً على كمال العلم بالله من ناحية أخرى. ويستند المكي في كلامه عن مقام الخوف ومكانته إلى قوله تعالى " **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** "[184] لأن الآية تدل عنده على أن الله رفع العلم به على العقل وجعله مقاماً[185] وكذلك قوله تعالى " **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** "[186] فتلك الآية بدورها عند المكي تنهض دليلاً على ذلك، لأنها جعلت الخشية مقاماً في العلم، ولأجل ذلك ارتفع مقام الخوف من الله عند المكي لأن الخشية المشار إليها في الآية الكريمة حال مقام الخوف[187] .

ولا تكون الخشية من الله تعالى وصفا لازما عن الخوف أو حاله إلا للعبد الموقن في إيمانه وعلمه بالله ، ومن ثم فالخوف عند المكي وكما هو عند العلماء والكمل من المؤمنيين اسم جامع لحقيقة الإيمان وهو علم الوجود والإيقان. وإذا كانذلك كذلك فالخوف عنده في هذه الحالة هو علة اجتناب وكل نهي ومفتاح أمر ، إذا ليس هناك شيئ يحرق شهوات النفس آثار آفاتها إلا مقام الخوف [188] فمقام الخوف إذا من الله وسيلة لضبط حركات العبد وسكناته في كل أمر مأمور به من الله وفي كل أمر نهى الحق تعالى عنه . وإنما يكون كذلك – الخوف – حين يوقف النفس عن شهواتها ويلزمها بالطاعة عند أداء المأمور والانتهاء عن المحظور ، ذلك لأنها بطبعها منبع الشهوات ومحل

الأهواء والرغبات ، ولأجل ذلك قال الداراني (ت212هـ) إذا سكن الخوف في القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة[189] إذ الخوف كمايقول أبو حفص النيسابوري (ت270هـ) بمثابة سراج في القلب يبصر ما في من الخير والشر [190].

لكن الخوف بوصفه مقاما عند المكي كاملا إلا إذا اقترن في صلة بالتقوى الكاملة لله ، ودليلنا على ذلك أنه اسم لحقيقة التقوى معنى جامعة للعباد ، وهي لذلك رحمة الله تعالى للأولين والأخرين [191] وينتظم هذين المعنيين في قوله تعالى :" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** " [192] وقوله تعالي " **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** " [193]. لذلك يؤكد المكي على أهمية مقام الخوف في تلازمه بتمام معرفة الله وكمال الإيمان ، فيجعله مقصورا بهذا المعني على العلماء بالله ، بخلاف ما قد يتصوره العامة في شأنه من القلق والاحتراق أو الوله . فكل هذه خطرات وأحوال ومواجيد ، وليست من حقيقة العلم في شيء بمنزلة مواجيد بعض الصوفية من العارفين في أحوال المحبة ومن احتراقهم وولههم [194] . ولهذا السبب أيضا كان الخوف عند العلماء اسم لصحيح العلم بالله وصدق المشاهدة ، فإذا أعطى العبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمى حينئذ خائفا ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم – كما قال المكي – أخوف الخلق ، لأنه كان على حقيقة العلم ، ومن أشدهم حبا في الله تعالى ، ومع أنه كان في مقام القرب إلا أن حاله كان السكينة والوقار في المقامين معاً، وذلك هو التمكين[195] ، ولهذا السبب كذلك فالعبادة إذا كان أساسها التقوى كان وصفها أو حالها تمام الخوف من الله ، ولا شك أن اقران هذين الأمرين معاً – الخوف والتقوى – بالعبادة يجعلها جامعة لكل معاني القرب من الله ، وهذه هي العبادة التي أمر

الحق تعالى بها عبادة لقوله عز من قائل " **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**".[196] فكانت هذه الآية – فيما يرى المكي – قطب القرآن ومداره ، من حيث أن التقوى سبب أضافة الله تعالى إليه تشريفا له ومعنى وصلة وإكرام عباده تعظيما لله [197] لذلك كان مطلوبه تعالى من عباده التقوى في كل يتقربون به إليه وأية هذا قوله تعالى " **لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** "[198] ولعلو شأن التقوى من هذه الحيثية أكد سهل التستري شيخ المكي أن العبد لا غنى له بالتقوى في كل أحواله مع الله أو هي بالأحرى قوامع وزاده إذ لا معين كما يقول إلا الله ولا دليل إلا الله ولا زاد إلا التقوى ولا عمل إلا الصبر عليه[199] ومن الجلي أن سهلا يستند توكيده على التقوى ومكانتها إلى قوله تعالى " **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** " [200] وقوله تعالى " **وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ** " [201].

ولذلك فقد أصاب التستري كما أصاب المكي من بعده في ربطة مقام الخوف بمقام التقوى أو بعبارة أدق التقوى هي الاسم الجامع للعبادة ، ومن ثم اعتبارها ضرورة للخوف كما هي ضرورة لكل مقامات اليقين . وسبب ذلك أن التقوى وسيلة بل ضرورة لولاية الله تعالى لعبد ، فإذا لزمت بالتالي للعب وكانت زادته في مقام الخوف فقد حصل على محبة الله ومن ثم ولايته ، لأن المتقين هم الذين فعلوا المأمور وتركوا المحظور وصبروا على المقدور وبسبب هذا كله أحبهم الله [202] لقوله تعالى " **بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** "[203] فإذا أحبهم لتقواهم فقد تولاهم لقوله تعالى "**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** " [204] ، فإذا حصلت لهم الولاية بسبب تقواهم والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة [205] والدليل على هذا قوله تعالى " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ**

فُرْقَانًا " [206] إذ الآية لمن تدبرها تعني كما يقول المكي أي نورا في قلوبكم تفرقوا به بين الشبهات ومثله [207] .

وما دام الخوف قرين الإيمان ، فبدهي أن يتفاوت العباد في نصيب كل من هذا المقام تحققاً وحالاً، وإنما يكون الاختلاف بحسب علم كل واحد أو بالأحري بحسب قوة إيمانه وكماله وتقواه، وتبعاً لذلك فالخوف اسم جامع لمقامات الخائفين وأحوالهم – فيما يري المكي – وهو يشتمل علي خمس طبقات وفي كل طبقة ثلاث مقامات، فالأول من الخوف هو التقوي وهو من نصيب المتقين والصالحين والعاملين، والثاني هو الحذر وذلك من نصيب الزاهدين الورعين والخاشعين، والثالث هو الخشية ويدخل فيه طبقات العالمين والعابدين والمحسنين، والرابع هو الوجل وهذا للذاكرين والعارفين، والخامس هو الإشفاق وهو للصديقين والمحبين وخصوص المقربين، وخوف أصحاب هذا المقام عن معرفة الصفات لأجل الموصوف لا عن مشاهدة الاكتساب لأجل العقوبات [208] .

والزهد من ألزم مقامات الموقنين عند المكي، وهو يعكس موقف الموقنين من الدنيا، لأن أصل الرغبة في الدنيا ترتد لضعف اليقين، من حيث إن العبد لو قوي يقينه لنظر بنوره إلي الآجل فغاب في نظره العاجل، فزهد فيما غاب وأحب الحاضر، فآثر ما هو أعود عليه وأبقي وأنفع له ولمولاه فرضي وقدم ما ينفي وينقطع إلي ما يدوم ويتصل، وهذا هو صورة الزهد وشهادة الموقنين [209] . وهو علامة عند المكي علي محبة الله تعالي، فالزاهد حبيب الله، ومن ثم فينبغي أن يكون الزهد من أفضل الأحوال إذ المحبة أعلي

المقامات [210] ومعني هذا الزهد مقام وحال، وأنه من ألزم المقامات للوصول إلي مقام المحبة بوصفه أعلي مقامات الموقنين للوصول إلي مرتبة البدلية .

ولما كان هذا شأن الدنيا لم يتعلق بها العلماء بالله، ولم يلتفتوا إليها، وأسقطوها في نظرهم طلباً للآخرة زهداً في العاجل وطلباً للآجل، وهذا هو الموقف الذي ينال العبد بسببه محبة الله تعالي في نظر المكي فمن زهد في الدنيا أحبه الله تعالي، وإن كان الزهد في الدنيا يكمن في خروج قدرها من القلب إذ هي لا شئ كما قال أبو سعيد الأعرابي وهذا هو الزهد في الزهد[211] لأن الزهد عند المكي إنما هو في الحلال المحض ولا نعرف الحال المحض اليوم، لأن هذا الذي أكده الحسن البصري إمام الأئمة كما يقول إذ كان لا شيء أفضل عنده من رفض الدنيا[212] .

والغريب هنا أن يمكن يدعم موقفه من الدنيا بوصفه داعياً إلي الزهد بكل ما أوتي من جهد وحيلة . فيذكر أن سنده ما روي في الأثر الدنيا ملعونة ملعونة وما فيها إلا ذكر الله تعالي ومولاه . وأنه قد روي عن علي رضي الله عنه الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر علي مزاحمة الكلاب. ويستشهد علي حقارة الدنيا بأقوال لعيسي عليه السلام منها قوله الدنيا قنطرة خلقت يعبر عليها إلي الآخرة فاعبروها ولا تعمروها. وكذلك قوله عليه السلام في شأن الدنيا "إليك عني يا خنزيرة" [213]. فهذا هو الاسم الذي أطلقه علماؤنا علي الدنيا – كما يقول المكي – وهو يحبذه استناداً لموقفه التشاؤمي – في رأينا – لأنهم لو وجدوا لها شراً من هذا الاسم لسموها به علي حد قوله [214] .

لكن المكي يتعسف في رأينا في تأكيد مفهوم الزهد بكل ما وسعه الجهد فيفسر قوله تعالي " **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ**

وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ "[215] أنهم الزاهدون في الدنيا[216] وأن قوله تعالي " **أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا** " [217] أنهم صبروا علي الزهد في الدنيا [218] وكذلك يفسر قوله تعالي " **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** " [219] فيرجع ذلك بأنه بما صبروا علي الفقر [220] .

وفي اعتقادي أن صنيع المكي هذا ليس له ما يبرره، وليس هذا راجع إلي لطائف أودعها الله في قلبه كما يقول غيره من الصوفية، فكل ذلك إسراف في تحميل النصوص القرآنية بل والحديثة فوق ما تحملته، فكان أن أخذ النص القرآني علي يده وعلي يد غيره من الصوفية أكثر مما أعطاهم. ولا يعني هذا أن القرآن لا يتضمن بداخله منازع صوفية، فذلك مبثوث وموجود فيه وبما يلائم مشرب دين الإسلام. لكن صنيع المكي هنا يرتد لاعتقاده وغيره من الصوفية أن لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع [221] . ومنه كان تفضيله للفقر علي الغني امتداداً لموقفه التشاؤمي من الدنيا. وهذا بالتفصيل عنده يقتضيه مقام الزهد، ويتسق معه، من حيث إن الزاهد هو الموقن الذي يفضل الفقر علي الغني، ولا يقول بغير هذا ويتوهم كما توهم البعض بفضل الأغنياء علي الفقراء [222] استناداً لقوله تعالي " **تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ** "[223] وهذه الآية لا تنهض دليلاً عند المكي إلا لمن لم يتدبروا القرآن، بينما هي عند المتدبرين تعني مزيداً من التكريم للفقراء لتمام حالهم [224] لقوله تعالي " **وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**"[225].

لذلك يقضـي مقام الزهد في الدنيا عند المكـي حب الفقراء وإيثار أهلـه ومجالسـة المساكين [226] ولا غرابـة بعد ذلك أن يعقد فصـلاً فـي قوتـه ليدلل لـه علـي فضـائل الفقـر [227] ويستشـهد بكثيـر مـن الآيـات القرآنيـة كقولـه تعـالي "**لِلْفُقَـرَاءِ الْمُهَـاجِرِينَ الَّـذِينَ أُخْرِجُـوا مِـنْ دِيَارِهِـمْ وَأَمْـوَالِهِمْ** " [228]وقولـه تعـالي "**لِلْفُقَـرَاءِ الَّـذِينَ أُحْصِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْـتَطِيعُونَ ضَـرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَـبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** " [229] ، ويحـاول أن يـدعم ذلـك بما جـاء فـي الحديث الشريف عن النبي صلي الله عليه وسلم " **اللهم أحيني مسكيناً وأمتنـي مسكيناً واحشرني فـي زمـرة المسـاكين** " [230] وبمـا جـاء فـي الخبـر "**يـدخل فقـراء أمتـي الجنـة قبل الأغنياء بخمسمائة عام** " [231] .

لن نزعـة المكـي التشاؤمية إلـي الدنيا فيها من الغلو ما لا يتحمله حقيقة الزهد بحسب الهدي القرآنـي، لأن الزهد فـي حقيقتـه عمل ومظهر إيمـانـي يستلزم من الإنسان ألا يتعلق عقله وقلبه بالدنيا كليـة، إذ الأصـل أنها دار توصـله إلـي دار أخري هـي المستقر وخاتمـة النعيم . فالـدنيا فـي حد ذاتهـا ليست مذمومـة بـإطلاق وهـي فـي الوقـت نفسـه ليسـت محمـودة بـإطلاق . وإنمـا تكـون بهـذا الوصـف أو ذاك بحسـب موقـف الإنسـان نفسـه، وحـين يحقـق فيهـا نسبته لربـه ويحقق فيها طاعته لخالقه . وهو ما تؤكده الآيات القرآنيـة بشأنها، إذ الدنيا فيه لا تذم، وإنمـا يتوجـه الذم إلـي فعل العبد فيهـا، وهـي قنطرة إلـي الجنـة أو النـار، ولكن لما غلبت عليه الشهوات والحظوظ والغفلة عن الله ، صار هذا هو الغالب علي أصلها وما فيها، والتحقيق كما يقول ابن القيم أنـه لا ينبغي بالتفصيل بين أمرين مختلفين[232] .

وإضـافة إلـي هـذا، فـإن الحيـاة ذاتهـا لا تـذم لأنهـا مـن خلـق الله تعـالي شأنها شأن الموت، إذ الكل خلق الله تعالي لقوله تعالي " **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** "[233] ثـم إن الـدنيا بالتـالي مثلهـا كمثـل مخلوقات الله لم تخلق عبثاً بل عن حكمة وقصد لقوله " **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** "[234] وإذا كان الإنسان مخلوقاً في هذه الدنيا، فلكي يعمرها من ناحية، ويحقق في الآن نفسه عبادته لله تعالي وحده لقوله تعالي " **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** "[235] .

فالزهـد لا يتحقـق علـي حقيقتـه إلا بكمـال الإيمـان وتمامـه كمـا يقـول المكـي، لكن دون أن تستلزم طلب الفقر ونبذ الدنيا واحتقارها، فالزهد الحقيقـي قوامه الافتقار إلي الله تعالي ظاهراً وباطناً، ليكون العبد غنياً به عمن سواه في كل أحواله مع الخلق، وإنما يكون هذا الزهد بهذه الحيثية بالذات بالعلم والعمل، فمـا وصـل أحد مـن الأوليـاء إلا مـا وصـل إليـه كمـا يقـول الجيلانـي إلا بـالعلم والزهد فـي الـدنيا والإعـراض عنهـا بالقلـب لا بالقلـب[236] . ولعمـري إنهـا إشـارة لطيفـة ، لأنهـا تجعـل الزهـد لـيس رسـماً ولا شـكلاً ولا ذمـاً للـدنيا وحقـارة لهـا، بـل موقف إيجابي، ولهذا فقد أصـاب الجيلانـي لمـا جعـل التوحيد والزهد لا يكونـان علـي الجسد واللسان، وإنما التوحيد في القلب والزهد في القلب كذلك علـي حد قولـه[237] .

والتوكـل عنـد المكـي مقـام مـن أعلـى مقامـات اليقـين وأشـرف أحـوال المقربين[238] فكأنـه بذلك مقام وحـال في ذات الوقت. ويستند هذا عنده لعظيم شأن المتوكلين لقولـه تعـالى " **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** "[239] وتلك إشـارة إلـى أن الله جعل المتوكل حبيبـه وألقى عليـه محبتـه[240] ويـزداد فضـل المتوكـل عنـد الله

كما يقول المكي في قوله تعالى " **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** "[241] فدلت الآية على أن الحق تعالى قد اختص المتوكل بعنايته وكلأه برعايته لعظيم اعتماده على الله وحده، ومن كان هذا شأنه فالحق تعالى كافيه مما سواه، ومن كان الله كافيه فهو شافيه ومعافيه على حد قول المكي[242] .

بيد أن مفهوم التوكل عند المكي لا يكون بذلك وصفاً لعمل العبد وحاله مع الله، بل هو كذلك يمتد به ليكون حاله مع الخلق لأن من توكل الخصوص الصبر على الأذى في القول والعمل والفعل لقوله تعالى لنبيه "**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** "[243] وقوله تعالى "**وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**"[244] وقوله تعالى " **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** "[245] ثم التوكل كذلك في الصبر على حسن المعاملة وترك القلب للمعارضة حياءاً من الله وإجلالاً له[246] لقوله تعالى " **نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**"[247] ثم الصبر على التسليم والحكم والرضا[248]، وهو حال يعقوب عليه السلام لما قال تعالى في حقه " **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** "[249]. وتمام التوكل بوصفه صفة يحبها الحق تعالى في عبده مرهون بكمال الإيمان وقوته، ذلك لأن المتوكل إذا رأى السبب أو وقف عنده فهو مدع كما يقول التستري إذ ليس مع الإيمان أسباب إنما الأسباب في الإسلام[250]. ولا شك أن سهلاً هنا ينطلق في مفهومه لحقيقة التوكل من علو مرتبة الإيمان على الإسلام، ولهذا فالكمل من المؤمنين الموقنين هم الذين حققوا التوكل على هذا النحو، فغضوا الطرف عن رؤية الأسباب والسكون إليها والتعويل عليها وحدها، لفرط يقينهم بأن الكل من الله، ولأجل ذلك انقطع نظرهم عن الطمع في النظر إليها أو النظر إلى الخلق

كذلك[251]. وجرياً على رأي التستري فقد ذهب المكي إلى ما ذهب إليه شيخه في شأن التوكل منظوراً إليه من هذه الجهة، إذ ليس في حقيقة الإيمان الأسباب والسكون إليه إنما رؤيتها والطمع في الخلق يوجد مقام الإسلام ولذلك قال لقمان لابنه للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلا بهن كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين التوكل على الله والتسليم بقضائه والتفويض إلى الله والرضا بقدر الله[252]. وهذا هو بعينه شأن المتوكل الحقيقي في علاقته بالحق والخلق، فشأنه مع الحق والسكون إليه والاعتماد عليه وحده وشأنه مع الخلق الإعراض عما بأيديهم ثقة بمقدور عند المقرر وهو الله وحده، ومن ثم فلا جرم أن كان حد حال المتوكل عند المكي سكون القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلع وقطع الهم عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمع وهو لأجل حاله عاكف القلب على المقلب المدبر مشغول الفكر بقدره المعروف[253] .

ولا يكون هذا حالاً للمتوكل إلا من كمال إيمانه وتوحيده، إذ الصلة موجودة لا معدومة بين التوكل بهذه الحيثية وتمام التوحيد الخالص لله، لأن المتوكل إذا كان توحيده كاملاً، فلا شك أنه لا يرى الأشياء حاكمة جاعلة نافعة ضارة، لأن ذلك لا يقتضيه مقام توكله على الله ويقينه في إيمانه بالله، لأن الله قادر والقدرة صفته وهو حاكم جاعل ضار نافع لا شريك له في أسمائه، فما كان كذلك فقد اظهر الأشياء عن وصف القدرة وأجرى الأشياء من حكمه لأجل ما شهد من قدرته[254] وبهذا يتباين حال كل عبد في مقام التوكل بحسب قوة إيمانه ويقينه، فكل مؤمن بالله متوكل على الله كما يقول المكي ولكن توكل على عبد على قدر يقينه[255] ولذلك اشترط الحق تعالى في الإيمان به والإسلام له التوكل عليه[256] فقال تعالى " **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** "[257] .

ولقد أحسن المكي صنعاً لما ربط حقيقة التوكل بكمال الإيمان، لأن حقيقة التوحيد تتضمن أن الله هو المعطي المانع الضار النافع كما هو المحيي المميت لا شريك له في ملكه ولا ظهير له من عباده في خلقه، وإذا كان ذلك– كذلك – فلابد أن يكون ذلك يقين المتوكل ومقامه وحاله مع الحق والخلق، وغير ذلك يقدح في حقيقة التوحيد، بل هو من الشرك الخفي[258] ومن ثم كان التوكل مقاماً رفيعاً من مقامات الأنبياء ومن أعالي مدارج الصديقين، ومن تحقق به فقد تقق بالتوحيد وكمل إيمانه[259] ولهذا السبب كان ابن تيمية ألمعياً لما جعل التوكل من الأمور الباطنة لكمال الإيمان والعبادة[260] .

ولعل حد التوكل على هذا النحو عند المكي وكما استقاه من هدي القرآن، هو الذي يجعل منه مقاماً عزيزاً ورفيعاً وضرورياً لكمال الإيمان لذلك جعله الغزالي منزلاً من منازل الدين ومقاماً من مقامات المقربين، ولكنه في الوقت ذاته غامض من حيث العلم وشاق من حيث العمل، لأن ملاحظة الأسباب وحدها، والاعتماد عليها شرك في التوحيد[261]. وتلك إشارة دقيقة من الغزالي في شأن التوكل، لأن تمام التحقق به مرهون بالعلم والمعرفة بالله، فإذا صح العلم صح العمل، وإذا صح العمل وكمل كان الحال، فلا جرم إذن أن يكون المتوكل بالتالي مقاماً وحالاً، وإذا كان كذلك، فإن حال المتوكلين يرتد إلى كمال عملهم إذ الحال تابع للعلم والعمل معاً، ومن ثم فالتوكل على قدر العلم بالوكيل كما يقول السهروردي البغدادي، وكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلاً، ومن كمل توكله اب في رؤية التوكل وهذا شأن توكل المحققين الذين يرون الأسباب مواتاً لا حياة لها إلا بالله[262] ومن كان هذا شأنهم فقد انتفى عنهم الجزع والاضطراب والقلق لكمال إيمانهم والثقة بموعود الله، إذ التوكل أن يطمئن القلب بموعود الله[263] وإنما يكون ذلك لمن فهم حقيقة التوكل – كما

يقول الخراز – من حيث هو التصديق لله عز وجل والاعتماد والسكون إليه وحده[264] .

والتوكل الحقيقي على الله لا يعني ترك الأسباب بالكلية، فليس هذا حد التوكل الحقيقي على الله، ولا هو جنس توكل الموقنيين لأنهم يأخذون بالأسباب لكنهم غائبون عنها أو بالأحرى عن رؤيتها وباقون من المسبب لفرط يقينهم بأن الله هو الفاعل على الحقيقة، ولذا فليس من التوكل الحقيقي ترك التكسب والركون إلى البطالة إذ لا يضر التصرف والتكسب لمن صح توكله ولا يقدح في مقامه ولا ينقص من حاله[265] لأنه مأمور لقوله تعالى "**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** "[266] وقوله تعالى " **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** "[267] وقوله تعالى " **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**"[268] فكل هذه الآيات شواهد صدق على ضرورة العمل والكسب، ومن أنكر التكسب فقد طعن في السنة، ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن في التوحيد[269] وليس من التوكل أيضاً ترك التداوي فليس ذلك من السنة إذ النبي صلى الله عليه وسلم له يترك التداوي إذ ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله[270] وكلام المكي هو الذي يتعين أن يكون عليه المسلم المؤمن الكامل في إيمانه ويقينه بالله، وهو الأمر الذي شدد عليه الصوفية المحققون، فمن ينكر الكسب كما يقول الجيلاني (ت561هـ) من حيث الأخذ بالأسباب فقد أنكر السنة، ومن أنكر التوكل فقد أنكر حقيقة الإيمان[271].

ولا مراء في أن كلام الجيلاني يؤكد على ضرورة العمل والسعي والأخذ بالأسباب، لهذا فالكسب بداية والتوكل نهاية[272]. ولعمري إنها لإشارة دقيقة في حقيقة التوكل، فما على المرء إلا السعي والجد ومباشرة الأسباب، تاركاً النتائج

لله وحده ثقة بما هو مقسوم له في قضاء الله وقدره، لأن حقيقة التوكل تستلزم ذلك من حيث أنه تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي عن ظلمات الاختيار والتدبير، والترقي إلى ساحات شهود التقدير، فيقطع العبد أنه لا تبديل للقسمة فما قسمه الله لا يفوته، وما لم يقدر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه[273]. ولما كان هذا شأنه فلا عجب أيضاً أن يؤكد التستري على أنه ليس في المقامات أعز من التوكل، وقد ذهب الأنبياء بحقيقته وبقى منه صبابة انتشقها الصديقون والشهداء، فمن تعلق بها فهو صديق أو شهيد[274] وإذا كان ذلك كذلك فإن التوكل الحقيقي يحقق لصاحبه ولاية الله، ومن كان له مقامه وتمام حاله نال المعرفة بالله، فمن توكل على الله كما يقول أبو سالم البصري أسكن الله قلبه نور الحكمة وكفاه كل هم وأوصله إلى كل محبوب[275] فمن خرج من فيافي الأسباب والتعلق بالخلائق وركب بحر التوكل، فقد نال المعرفة بالله عز وجل على حد قول الجيلاني[276] .

والرضا ثامن مقامات الموقنين عند أبي طالب المكي ويستند هذا المقام عنده لقول الله تعالى " **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ** "[277] فهذه الآية تدل على أن أحسن الرضا عن الله تعالى – كما يقول المكي – جزاه الله بالرضا عنه، مقابل الرضا بالرضا وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء[278] وهذا المعنى يتأكد عنده لقوله تعالى " **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** "[279] وإلى هذا المعنى ندب النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس في وصيته فقال له "اعمل لله باليقين في الرضا، فإن لم تكن كان في الصبر على مكره خيراً كثيرا، فرفعه كما يقول المكي إلى أعلى المقامات ثم رده إلى أوسطها "[280] كذلك قوله صلى الله عليه وسلم لابن عمر " **واعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** " فندبه إلى المشاهدة وهو الإحسان[281] وكل هذه الشواهد القرآنية والحديثية إلى ساقها

المكي يدعمها أيضاً حديث يستند إليه " **إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر ابتلاه فإن صبر ابتلاه وإن رضي اصطفاه**[282] ولهذا ارتفعت مكانة الرضا بوصفه مقاماً أو بوصفه حالاً عند الصوفية، وحق للدارني (ت243هـ) أن يجعله وسيلة للمعرفة عن الله لما قال " علموا النفوس الرضا بمجاري المقدور فنعم الوسيلة إلى درجات المعرفة"[283] .

وظاهر من أقوال المكي أن الرضا مقام رفيع إذ يدخل في معناه كثير من معاني المقامات اللازمة لكمال إيمان العبد ويقينه في طريقه إلى الله. وآية ذلك أن التحقق بهذا المقام بتمامه لا يكون إلا للكمل ممن عرفوا حقيقة التوحيد أولاً، فلما أدركوا ذلك كان مقامهم هو الرضا ولابد من ذلك. ولهذا كان الرضا مقاماً رفيعاً من مقامات اليقين وأحوال المحبين ومشاهدة المتوكلين، لأن حقيقته تستلزم الإيمان واليقين الجازم بالقضاء والقدر، وأن كل أفعاله تعالى وما قد يحدث منها للإنسان إنما هي بقضائه تعالى، إذ لا يكون في ملكه إلا ما يقبله، لهذا حق على العارفين الموقنين بالقضاء والقدر على هذا النحو، التسليم بأحكام الله ولا صبر عليها مع ما قد يصحبها من البلايا والمحن[284] .

ولكن مقام الرضا بوصفه مرهوناً بكمال الإيمان ويقينه بقضاء الله وقدره يستلزم من الإنسان الرضا والقناعة بالمقدور، وعدم الجزع لنزول المكروه والصبر على البلاء وعند نزول المحن، ولذلك كان الرضا جامعاً لكل تلك الحقائق الإيمانية عند الكمل من الموقنين، ومن ثم كان أوله الصبر ثم القناعة ثم الزهد ثم المحبة ثم التوكل[285]. وإشارة المكي تنهض دليلاً على أن الرضى في أوله حال ناتج عن مقامات الصبر والزهد والمحبة والتوكل، فإذا رسخ العبد فيه ولزمه صار حينئذ مقاماً من مقاماته مع الله[286] .

وهذه الفكرة تمثل ملمحاً أساسياً في تصنيف المكي للمقامات، وعنه أخذها الغزالي، والسهروردي البغدادي بصفة خاصة إذ الشيء قد يكون بعينه حالاً ثم يصبر مقاماً، ولا مقام غلا بعد سابقه[287] ولا ينعكس الحال في الأحوال فمنها ما يصبر مقاماً ومنها ما لا يصبر، والسر في أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن[288] .

ومقام الرضا من أشق المقامات وأصعبها عند المكي، لذلك فكمال التحقق به لا يصح إلا فيما يحسن الصبر عليه والشكر عليه لأن الرضا مقام فوق الصبر والشكر[289] ولأجل ذلك فإن العبد إذا كان على نقصان من الدين وفي مزيد من الدنيا، ثم رضي بحاله فرضاه بحاله – كما يقول المكي – شر من أعماله لمخالفة الأمر[290] لقوله تعالى " **اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**"[291] وقوله تعالى " **يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** "[292] وقوله تعالى "**يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** "[293] فهذه الآيات كلها ندب فيها الحق تعالى العبد إلى المسارعة والسوابق وذم التخلف عنها والتثبط بالعوائق على حد قول المكي[294] وهذا هو الذي غلط فيه كما يقول المكي بعض البطالين من المتأخرين، ممن لا علم لهم ولا يقين، لما تعالوا بالرضا فيما وقعوا فيه من معصية وهوى نتيجة لجهلهم وقلة علمهم[295] ولا كذلك الكمل من العالمين بحقيقة التوحيد، فإن الرضا مقامهم ونعتهم مع الحق والخلق، ومن ثم كان نعتهم عند المكي الرضا عن الله عز وجل والرحمة للخلق وسلامة القلب والنصيحة للمسلمين، وهذا المقام للأبدال والصديقين[296] .

ومقام المحبة من أعلى مقامات العارفين عند المكي[297]، فهي التي بها ينال المريد عنده مرتبة البدلية، ويحظى بالتالي بالمعرفة عن الله، ولهذا فلا

تكون – كما سبق الإشارة – إلا لم طلبوا الله وآثروه على كل حظوظ الدنيا فزهدوا فيها طلباً لمحبته تعالى. ولهذا فنصيب كل واحد منها مرهون في الأصل بكمال المعرفة والتوحيد لله، فكل مؤمن بالله هو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه وكشف مشاهدته[298] فعلامة قوة المحبة إذا مرهونة بتوحيد الله والعلم به بداية، فمن صحت معرفته صح توحيده، ومن صح توحيده صحت محبته[299] وضرورة المعرفة والعلم لقيام المحبة يشهد عليه كما يقول المكي قوله تعالى " **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ** "[300] لأن قوله تعالى أشد دليل على تفاوتهم في المحبة، لأن المعنى أشد فأشد، ولهذا لم يقل الحق تعالى فيما يرى المكي شديد الحب لله وهذا يشبه ما جاء في الخطاب[301] في قوله تعالى " **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** " [302].

لهذا كان حظ المؤمنين من المحبة بحسب قوة الإيمان وزيادة اليقين، لأن المؤمنين فيما يرى المكي متزايدون في الحب لله عز وجل بتزايدهم في المعرفة وقد أكد الحديث هذه العلاقة فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم الحب من شرط الإيمان بقوله " **لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما** "[303] بل إن هناك خيراً أشد توكيداً وأبلغ للدلالة على هذا هو قوله أيضاً " **لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**"[304]. وإذا كان المكي قد جعل العلم بالله شرطاً لمحبته، فذلك عين ما ذهب إليه الطوسي معاصره (ت378هـ) لأن من عرف الله تعالى وصفاته المعرفة التامة فبالضرورة يحبه[305] وهذا هو الذي يوافق الشرع والأقرب إلى العقل ولذلك فالمحبة لا تكون أيضاً عند الغزالي إلا بعبد معرفة وإدراك، لأنه لا يتصور أن يحب الإنسان إلا ما يعرفه[306] وكذلك ذهب ابن تيمية وابن القيم أيضاً[307] .

فإذا عدنا للمكي وجدنا أن علامات المحبين المحققين تعود إلى هذا الأصل، فكان بعضهم أعلى من بعض وأشدهم حباً لله هو أحسنهم تخلفاً بأخلاقه مثل العلم والحلم والعفو، ثم أشدهم حباً لرسوله ومتابعته لسنته وهديه وشمائله[308] وهذا تأكيد لقوله تعالى " **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** "[309] فهذا تأكيد لقوله تعالى " **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** "[310]. ومن علامات الحائزين لمقام المحبة بهذا الوصف المجاهدة في طريق المجاهدة في طريق المحبوب بالمال والنفس، ليقربوا منه ويبلغوا مرضاته، ويقطعون كل قاطع يقطعهم عنه[311] وذلك له شاهده في قوله تعالى " **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** "[312] ومن حقق كذلك مقام المحبة على هذا الوصف عند المكي قد لزمه كذلك ألا يمكن إلى غير محبوبه. وأن يؤثره على كل ما سواه، فلا يكون لواحد غيره مكانة عنده، وإذا لم يكن كذلك لم تكن محبته كاملة، بل كانت كما يقول التستري شيخ المكي خيانة أشد من المعصية[313]. ومن كمال محبة المحب لله كتمان بلائه فلا يتبرم به، فذلك يقتضيه حسن سره مع محبوبه وحسن الأدب مع الله بوصفه محبوبه[314] وهذا لا يتأتى إلا لمن حقق من قبل مقام الرضا وكمل فيه، فإذا كان كذلك هذا هو عين حاله في محبته لله ولهذا كان كتمان البلاء لازماً عن الرضا وعن محبة الله وفي ذلك تعظيم من المحب للمحبوب، وحياء منه، ولا يكون الوصف إلا للمخصوصين في المحبة[315]. لذلك كله كان مقام المحبة من أعلى مقامات الموقنين، ولهذا أيضاً فإن علامات المحبين الكاملين وأحوالهم في هذا المقام لا حصر لها ولا نهاية فكل موقن حقق المحبة بهذا الوصف فحاله كما يقول المكي يجل عن الوصف، إذا كيف يوصف من يسمع ويبصر من يحبه ويبطش ويعقل عن محبوبه، فيكون هو سمعه وبصره وقلبه ويده كما جاء في

الخبر [316] وهذا مقام محبوب مخصوص فقد حقق لـه المعرفة عن الله وشهود التوحيد من عين المحبوب .

المصادر والمراجع

1- هو محمد بن علي بن عطية بن الحارث المعروف بالمكي نسبة إلى مكة بحكم الإقامة وليس المولد، فقد كان من سكان الجبل ، وهي منطقة بين بغداد وواسطة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى البصرة ، وانتمي إلى مقاله ابن سالم – انظر في ترجمة المكي – الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ ج4 ص 89 ، وابن خلكان : وفيات الأعيان – دار الثقافة للطباعة للنشر والتوزيع – بيروت – بدون تاريخ ج 3 ، ص 120- 121 وأيضا ابن كثير : البداية والنهاية – طبعة الأدب العربي – القاهرة – المجلد السادس ص 409 ، كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي – ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار وأخرين مراجعة الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي –الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1993 – القسم الثاني ص472 .

2- الطوسي : اللمع ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور –دار الكتب الحديثة – القاهرة 1960ص 456-457.

3- أبو العلا عفيفي : التصرف – الثورة الروحية في الاسلام – دار المعارف – القاهرة 1963، ص92 ، ولمزيد من تفاصيل حياة المكي وشيوخه وعصره انظر : عبد الحميد مدكور : أبو طالب المكي ومنهجه الصوفي ، رسالة ماجستير غير منشور – كلية دار العلوم 1972 – الباب الأول ، الفصلين الأول والثاني ص 1-155. وأيضا محمد شراقة : دعائم التصوف المدني عند الطوسي وابي طالب

المكـي والغزالـي – رسـالة دكتـوراه غيـر منشـورة – كليـة الآداب جامعـة الاسكندرية – 1988 ، 13– 30.

4- شـاخت : تـراث الاسـلام – ترجمـة الـدكتور حسـين مـؤنس ، إحسـان صدقي – مراجعة الأساذ الدكتور فؤاد ذكريا – المجلس الأعلى للثقافة – الكويـت العـدد 12ج 2 ،1988 ص101 ، وانظـر حـاجي خليفـة : كشف الظنـون عن أسـامي الكتـب والفنـون ، مكتبـة المثنـى – بغـداد ، المجلـد الثـاني ص 361 . وأيضـا معجـم المـؤلفين – طبعـة بيـروت بدون تاريخ . ج11 ، ص 27 .

5- ابـو طالـب المكـي : قـوت القلـوب طبعـة دار صـادر ،بيـروت ج 1 ، ص 252 ، ج1 ص 128 .

6- الـهجويري : كشـف المحجـوب – ترجمة الـدكتوراة إسـعاد قنديل مراجعـة الـدكتور يحيـي الخشـاب ، المجلس الأعلـى للثقافة والشئون الاسـلامية – القـاهرة ، مكتبـة الخـانجي – الطبعـة الثانيـة 1969م ص 206 ومـا بعدها ، والقشـيرية – تحقيـق الـدكتور عبـد الحليم محمـود، محمـود بـن شـريف ، دار الكتـب الحديثـة – القـاهرة 1975 ج1 ص104 وأيضـا ابن الجـوزي : صـفوة الصـفوة ، صـححه عبـد السـلام هـارون – مؤسسـة الكتـــب الثقافيـــة ، بيـــروت 1991 ج4 ، ص 41– 42 ، وأيضـــا الكواكـب الدريـة فـي تـراجم الصـوفية ، حققـه دكتـور عبـد الحميـد حمـدان ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة 1994ج 1 ص 429 إلـى 440 ، والمنـتظم فـي تـاريخ الملـوك والأمـم ، طبعـة دائـرة المعـارف العثمانيـة ، 1358هـ ج7 ص 189 وما بعدها .

7- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دائرة المعارف العثمانية، 1358 هـ ج7 ص 189 وما بعدها .

8- الغزالي : المنفذ من الضلال – تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود – ومعه مجموعة دراسات للمؤلف – دار الكتب الحديثة – القاهرة ، الطبعة السابعة 1972م / ص 170 .

9- التفتازاني (الدكتور أبو الوفا) : الطرق الصوفية في مصر – بحث منشور بمجلة كلية الأدب – المجلد الخامس والعشرون – 1968 ج2 ص 106 ، وأيضا شاهد : التراث الإسلام ص 106 .

10-انظر : الغنية لطالبي طريق الحق تعالى وخاصة فيما يتعلق بالأوراد والصلوات الخاصة وما يلزم المزيد منها في أوقات النهار والليل وقواعد السلوك منها في وآدابه بالنسبة للمريد – الغنية لطالبي طريق الحق – طبعة مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثالثة 1956 جزءان في مجلد واحد .

11-السهروردي البغدادي : عوارف المعارف – طبعة دار الكتب العربي – بيروت – الطبعة الثانية 1403هـ / 1982 م ص 441 ومواضع أخرى متفرقة .

12-ابن عربي : الفتوحات المكية تحقيق الدكتور عثمان يحيي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1985 السفر التاسع ص 103 . انظر كتابنا عنه :الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي – الطبعة

الثانية دار الكتب الديني – القاهرة 2007 ، والكتاب في أصله كان موضوع لدرجة الدكتوراة .

13–ابن عربي : نفس المصدر ، السفر الثالث عشر ص 626 .

14–ابن الجوزي : تلبيس ابليس – مكتبة النور الإسلامية ، القاهرة – بدون تاريخ – ص164 – 165 وراجع الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج3 ص 89 .

15–ابن تيمية : مجموعة الفتاوى – دار المعرفة – بيروت – بدون تاريخ – الجزء الثاني ص 229 وانظر الذهب ج3 ، ص 120–121 وايضا الأعلام للزركاني ج1 ص 159 –160 .

16–الطوسي السراج : اللمع – تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة – القاهرة 1960 ص 29 ، وأيضا الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية : تحقيق حسن محمود – عالم الفكر ص 1983 ص75 .

17–القشيري : الرسالة القشيرية ، ج2 ص 732.

18–الهجويري : كشف المحجوب ، ج2 ،575 .

19–الطريقة – السيرة – الطريقة الرجل مذهبه – وفلان حسن الطريقة والطريقة الحال والطريقة جمعها طرائق وطرق . انظر : لسان العرب لابن منظور ج مادة طرق . والمنهج يقارب الطريقة من حيث إن نهج – طريق بين واضح وهو المنهج والجمع نهجات ونهج نهوج ومنهج

الطريق وضحه – والمنهاج كالمنهج – لسان العرب مادة نهج وقد ورد الطريق وطريقة وطرائق في القرآن الكريم : انظر الآيات 168،169 سورة النساء، والآية 30 سورة الأحقاف، والآيات 63 – 73، 104 سورة طه، والآية 11 ، 16 من سورة الجن والآية 17 من سورة المؤمنين – أما المنهاج فوردت في الآية 48 من سورة المائدة.

20–المكي : قوت القلوب – ج2، ص 83 .

21–زروق : قواعد التصوف – تحقيق محمد زهري النجار – مكتبة الكليات الأزهرية – الطبعة الثالثة، القاهرة 1979 قاعدة 57 ص43 .

22–الشعراني : درر الغواص في فتاوي الخواص – تحقيق محمد إسماعيل – دار الهدي للطباعة والنشر – القاهرة – 1985 ص49.

23–التفتازاني (الأستاذ الدكتور أبو الوفا) : مدخل إلي التصوف – دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة الثالثة 1979 ص 3–9 . وأيضاً الأستاذ عاطف العراقي : المنهج النقدي عن ابن رشد – دار المعارف – القاهرة 1980 ص 80 .

24–بوترو (إميل) : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1973 ص 224 .

25–الطوسي : اللمع ص 454 .

26–المكي : قوت القلوب، ج2 ، ص 67 .

27-انظـر : صـحيح البخـاري ج4 ص 129 وقـد ورد بـأكثر مـن روايـة، انظـر الاتحافـات السـنية فـي الأحاديث القدسية، صـححه وعلـق عليـه محمـود أمـين النـواوي – مكتبـة الأزهـر – الطبعـة الأولـي 1980 ص 137 – 146 .

28-انظر لابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ضمن مجموعـة رسـائل التوحيـد – دار التـراث العربـي،القـاهرة، بـدون تـاريخ، ص 438 .

29-المريد : هو المبتدئ في الطريق ولم يترسم بعد بمقام أو حال – انظر اللمــع ص 417 – 418 والمقامــات هــي مــا يكســبه المريــد بجهــده والأحوال ما يرد عليه من غير كسبه بل بوادر من الله . انظر اللمع ص 67 وأيضا الرسالة القشيرية ج2 ص 236 .

30-المكي : قوت القلوب ج1 ص 94 .

31-قال الزرقاني حديث حسن، انظر : المقاصد،ص 172 .

32-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص129 – 130 .

33-السهروردي البغدادي: عوارف المعارف، ص 31 – 23 .

34-المكي : قوت القلوب، ج1، ص 130 .

35-المكي : المصدر نفسه، ج1 ، ص 165 .

36-المكي : نفسه ج1، ص 174 .

37-المكي : نفسه ج1، ص 291 .

38-المكي : نفسه ج1 ، ص 140 .

39-القشيري : ترتيب السلوك – تحقيق إبراهيم بسيوني والدكتور محمد غانم – القاهرة 1985، الطبعة الثانية، ص 25 .

40-زروق : قواعد التصوف – مكتبة الكليات الزهرية، القاهرة – 1989 القاعدة 65 ص 39 .

41-المكي : قوت القلوب، ج2 ، ص 220 .

42-المكي : قوت القلوب، ج2 ، ص 164 .

43-المكي : نفسه ، ج1 ، ص 85 .

44-سورة الروم : الآية 45 .

45-سورة النساء : الآية 28 .

46-سورة الروم : والآية 54 .

47-سورة السجدة : الآية 7 .

48-سورة ص الآية 76 وأيضا سورة الأعراف الآية 12 .

49-سورة آل عمران : الآية 180 .

50-سورة الحجر : الآية 33 .

51-سورة الأحزاب : الآية 72 .

52-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 84 – 85 .

53-السلمي : عيوب النفس ومداواتها – تحقيق إيتان كولبرج – الجامعة العربية – القدس 1976 ، ص 77 .

54-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 85 ، وانظر كشف المحجوب ج2 ، ص 433 وأيضاً طبقات الصوفية، ص 212 .

55-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 125 .

56-المكي : نفسه، ج1، ص 86 .

57-الترمذي : أسرار ومجاهدة النفس، تحقيق ودراسة إبراهيم محمد الجمل – مكتبة السلام العالمية، القاهرة – 1984 ص 63 .

58-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 86 .

59-المكي : نفسه، ج1 ، ص 94 .

60-المكي : نفسه، ج1 ، ص 86 .

61-سورة الفجر : الآية 27 ، 28 .

62-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 86 .

63-المحاسبي : المسائل في أعمال القلوب – تحقيق عبد القادر عطا – عالم الكتب – القاهرة 1969، ص 131 .

64-القشيري : الرسالة القشيرية ج2 ، ص 122 . وانظر أيضاً اللمع للسراج الطوسي ص 195 .

65-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 86 .

66-المكي : نفسه، ص 78 .

67-المحاسبي : الرعاية لحقوق الله تحقيق عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الرابعة 1985، ص 45 .

68-سورة الحشر : الآية 18 .

69-المناوي : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ص 432 .

70-المكي : قوت القلوب، ج2 ، ص 174، وانظر الكواكب الدرية ج1، ص 434 .

71-المكي : نفسه، ج2 ، ص 172 .

72-المكي : نفسه، ج1 ، ص 94 .

73-الغزالي : إحياء علوم الدين ج3 ، ص 73 . ويستشهد الغزالي بنفس شواهد المكي في إيثار الجوع علي الشبع ص 73 – 74.

74-رواه البخاري .

75-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 95 . وأيضاً الغزالي : إحياء علوم الدين، ص 73 – 74 .

76-المكي : نفسه، ج1 ، ص 95 .

77-المكي : نفسه، ج1 ، ص 97 .

78-المكي : نفسه، ج1 ، ص95 .

79-الهجويري : كشف المحجوب ج2 ، ص 57 .

80-المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 95 .

81-المكي : نفسه، ج1 ، ص 95 .

82-الهجويري : كشف المحجوب ج2 ص 566 – 567 .

83-السلمي : طبقات الصوفية ص 29 .

84-المكي : قوت القلوب، ج2 ، ص 166 .

85-ابن العماد – شذرات الذهب، ج2 ، ص 120 .

86-الهجويري : كشف المحجوب، ج2 ، ص 426 وما بعدها .

87-ابن عربي : الفتوحات المكية – السفر الرابع ص 295 .

88-ابن عربي حلية الأبدال ضمن مجموعة الرسائل لابن عربي ج2 ص 7 وأيضاً انظر رسالة الأنوار ضمن مجموعة الرسائل ج1 ص 6 .

89-ابن عربي : الفتوحات المكية السفر الرابع ص 259 .

90-القشيري : الرسالة القشيرية ج1 ، ص 418 .

91-القشيري : نفسه، ص 420 .

92-المحاسبي : كتاب المكاسب – تحقيق عبد القادر عطا – 1969 ص 226 – 227 .

93-المكي : قوت القلوب، ج2 ص 172 .

94-المكي : نفسه، ج1 ، ص 95 .

95-المكي : نفسه، ص 95

96-المكي : نفسه، ج1 ، ص95 .

97-الهجويري : كشف المحجوب ج2 ص 596 وانظر طبقات الصوفية للسلمي ص 135 .

98-المكي : قوت القلوب، ج1 ص 95 .

99-سورة البقرة : الآية 45 .

100- المكي : قوت القلوب، ج1 ص 95 .

101- الغزالي : إحياء علوم الدين ج3 ص 74 .

102- ابن عربي : حلية الأبدال ج2 ضمن مجموعة الرسائل ص 8 .

103- المكي : قوت القلوب، ج2 ص 98 انظر إحياء علوم الدين ج3 ص 74 لكلام الغزالي هو نص كلام أبي طالب المكي .

104- المكي : نفسه ص 98 .

105- المكي : قوت القلوب، ج1 ص 96 .

106- ابن عربي : حلية الأبدال، ص 4 – 5.

107- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 97 .

108- المكي : نفسه، ونفس الصفحة .

109- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 97 . وانظر : عوارف المعارف للسهردوردي البغدادي، ص 220 .

110- المكي : نفسه، ونفس الصفحة .

111- الغزالي : إحياء علوم الدين، ج3 ، ص 74 .

112- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 97 .

113- المكي : نفسه، ونفس الصفحة .

114- ابن عربي : رسالة النوار ضمن مجموعة الرسائل ج1 ، ص 5 وأيضاً الفتوحات المكية ج2، ص 105 وأيضاً ج2 ص 228 .

115- ابـن عربـي : تحفـة السـفرة، تحقيـق محمـد صـالح المـاحي، دار الكتاب اللبناني، بيروت بدون تاريخ، ص 78 . وانظر تفصيلا هذه المراتب في نفس المصدر ص 78 – 97 .

116- سورة النور : الآية 31 .

117- المكي : قوت القلوب، ج1 ص 179.

118- الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق – ج1 ص 116 .

119- سورة النور : الآية 31 .

120- الجيلاني : الغنة لطالبي الحق ج1 ، ص 188 .

121- الجيلاني : المصدر نفسه، ج1 ، ص 118 – 119 .

122- ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص514 . وأيضاً لابن تيمية رسالة التوبة – ضمن مجموعة الرسائل تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، المؤسسة السعودية – القاهرة ، 1984 ، ص 227 .

123- سورة التحريم : الآية 8 .

124- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 179 . وانظر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق ج1 ، ص 116 .

125- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 179 – 180 .

126- المكي : نفسه ، ص 180 .

127- المكي : نفسه ، ص 181 .

128- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 180 .

129- سورة الأعراف : الآية 196 .

130- الجيلاني : الفتح الرباني : طبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، 1979، ص 78 .

131- الجيلاني :المصدر نفسه ص 231 .

132- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 181 .

133- السهروردي البغدادي : عوارف المعارف، ص 206 .

134- ابن عربي : تحفة السفرة، ص 23 – 24 .

135- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 193 .

136- سورة السجدة : الآية 24 .

137- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 194 .

138- ابن تيمية : التحفة العراقية في الأعمال القلبية، ص 55 .

139- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 194 .

140- سورة النحل : الآية 127 .

141- سورة الزمر : الآية 10 .

142- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص195 .

143- المكـي : نفـس المصـدر ونفـس الصـفحة، وانظـر السـهروردي البغدادي : عوارف المعارف، ص 74 .

144- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 195 .

145- الجيلاني : فتوح الغيب – طبعة الحلبي – القاهرة، ص 74 .

146- الجيلاني : نفسه، ص 16 .

147- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 196 .

148- ابن تيمية : التحفة العراقية، ص 54 .

149- المكي : قوت القلوب، ج1 ، ص 196 .

150- ابـن القيم : كتـاب الفوائد – طبعـة المكتبـة القيميـة، 1400 ، ص 140 .

151- ابـن عربـي : الفتوحـات المكيـة – دار صـادر – بيـروت – بـدون تاريخ، الجزء الأول، ص 33 وما بعدها وأيضاً ج2 ، ص 386 .

152- ابن تيمية : التحفة العراقية في الأعمال القلبية، ص 54 .

153- سورة البقرة : الآية 155 .

154- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 200 .

155- المكي : المصدر نفسه، ج 1، ص 201 .

156- سورة النساء : الآية 147 .

157- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 203 .

158- المكي : المصدر نفسه، نفس الصفحة .

159- سورة البقرة : الآية 152 .

160- سورة العنكبوت : الآية 45 .

161- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 203 .

162- ابن القيم : كتاب الفوائد، ص 127 .

163- سورة آل عمران : الآية 123 .

164- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 206 .

165- ابن عربي : الفتوحات المكية، ج1، ص33 .

166- المكي : المصدر السابق، ص206 .

167- سورة سبأ الآية 13 .

168- سورة ص الآية 24 .

169- سورة الواقعة الآية 13 .

170- ابن القيم : كتاب الفوائد، ص 53 .

171- سورة آل عمران : الآية

172- سورة الزمر الآية 53 .

173- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 215 .

174- المكي : المصدر نفسه والصفحة .

175- الغزالي : إحياء علوم الدين ج4، ص139 .

176- المكي : قوت القلوب، ج1، ص215 .

177- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص216 .

178- المكي : المصدر نفسه، ص216 .

179- المكي : المصدر نفسه، ص 224 .

180- المكي : المصدر نفسه والصفحة .

181- سورة الإسراء : الآية 57 .

182- المكي : قوت القلوب، ج1، ص224 .

183- المكي : المرجع نفسه، نفس الصفحة .

184- سورة العنكبوت : الآية 43 .

185- المكي : قوت القلوب، ج1، ص225 .

186- سورة فاطر الآية 28 .

187- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 225 .

188- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 225 .

189- السلمي : طبقات الصوفية، ص 81 .

190- القشيري : الرسالة القشيرية، ج1، ص188، وأيضاً إلى قريب من هذا ج1، ص391 .

191- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 225 .

192- سورة البقرة : الآية 21 .

193- سورة النساء : الآية 131 .

194- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 236 .

195- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 236.

196- سورة النساء : الآية 131 .

197- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 225. ويستشهد المكي في هذا الصدد بأقوال لشيخه القشيري ص 226، 236، وللحسن البصري إمام العلماء وإمام الأئمة في نظره ص 227، وكذلك يستشهد بأقوال لعيسى عليه السلام ص 227 .

198- سورة الحج : الآية 37 .

199- السلمي : طبقات الصوفية ص 211 .

200- سورة البقرة الآية 197 .

201- سورة الأعراف : الآية 26 .

202- ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص527 .

203- سورة آل عمران : الآية 76 .

204- سورة الجاثية : الآية 19 .

205- القشيري : الرسالة القشيرية، ج1، ص530 .

206- سورة الأنفال : الآية 29 .

207- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 79 .

208- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 241.

209- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 245.

210- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 243.

211- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 268.

212- المكي : المصدر نفسه، ج1، ص 268.

213- المصدر السابق، ج1، ص256، 264، 270 .

214- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 245.

215- سورة القصص : الآية 80 .

216- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 243.

217- سورة القصص : الآية 54 .

218- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 243.

219- سورة الرعد : الآية 24 .

220- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 243.

221- انظر على سبيل المثال : الطوسي في اللمع ص 44 والغزالي : مشكاة الأنوار – ضممن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ج2، ص32 .

222- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 243.

223- سورة التوبة : الآية 92 .

224- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 243.

225- سورة البقرة : الآية 58 .

226- المكي : قوت القلوب، ج1، ص 266.

227- انظر المصدر نفسه، ج2، ص193 – 204 .

228- سورة الحشر الآية 8 .

229- سورة البقرة : الآية 273 .

230- رواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه الترمذي – انظر تمييز الطيب من الخبيث ص 30. والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني ص 240 – 241 .

231- انظر الفوائد، المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص 245 .

232- ابن القيم : عدة الصابرين – مكتبة المتنبي، بدون تاريخ، ص167 – 168 .

233- سورة الملك : الآية 2 .

234- سورة المؤمنون : الآية 115 .

235- سورة الذاريات : الآية 56 .

236- الجيلاني : الفتح الرباني، ص106 .

237- الجيلاني : المصدر نفسه ص 49، وانظر السهروردي البغدادي: عوارف المعارف، ص56 .

238- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 2.

239- سورة آل عمران : الآية 159 .

240- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 2 .

241- سورة الطلاق الآية 3 .

242- المكي : المصدر السابق، ج2، ص 9 .

243- سورة المزمل الآيتان 9 ، 10 .

244- سورة الأحزاب الآية 48 .

245- سورة الأحقاف الآية 35 .

246- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 9 .

247- سورة العنكبوت الآية 59 .

248- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 9 .

249- سورة يوسف الآية 67 .

250- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 5 .

251- المكي : المصدر السابق، ص 2 .

252- المصدر نفسه، ص 5 .

253- المصدر نفسه، ونفس الصفحة .

254- المصدر نفسه، ص 10 .

255- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 10 .

256- المصدر السابق ج2، ص16 .

257- سورة يونس الآية 84 .

258- المكي : قوت القلوب، ج2، ص14 .

259- المكي : المصدر نفسه، ج2، ص 32 .

260- ابن تيمية : التحفة العراقية في الأعمال القلبية، ص42 .

261- الغزالي : إحياء علوم الدين، ج4، ص238 .

262- السهروردي البغدادي : عوارف المعارف، ص500 .

263- السلمي : طبقات الصوفية، ص 63 وأيضاً ص 66 .

264- الخراز (أبو سعيد) : الطريق إلى الله أو كتاب الصدق، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود – دار المعارف – القاهرة : 1979، ص64 .

265- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 23 .

266- سورة النبأ الآية 11 .

267- سورة الأعراف الآية 10 .

268- سورة النور الآية 37 .

269- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 16 .

270- المكي : المصدر السابق، ج2، ص 23 .

271- الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق، ج2، ص192 .

272- الجيلاني : الفتح الرباني، ص226 .

273- الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق، ج2، ص189 .

274- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 2 .

275- السلمي : طبقات الصوفية، ص 419 .

276- الجيلاني : الفتح الرباني، ص80 .

277- سورة الرحمن الآية 60 .

278- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 39 .

279- سورة المائدة الآية 119 .

280- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 39 .

281- المكي : المصدر نفسه ونفس الصفحة .

282- المكي : المصدر نفسه ونفس الصفحة .

283- السلمي : طبقات الصوفية، ص81 .

284- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 46 .

285- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 45 .

286- المكي : المصدر نفسه، ص 45 .

287- السهروردي البغدادي : عوارف المعارف، ص 417 .

288- السهرودي البغدادي : المصدر نفسه، ص 472 – 473 .

289- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 46 .

290- المكي : المصدر نفسه والصفحة .

291- سورة المائدة الآية 35 .

292- سورة الإسراء الآية 57 .

293- سورة المؤمنون الآية 61 .

294- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 46 .

295- المكي : المصدر نفسه، ج2، ص 46 .

296- المكي : المصدر نفسه، ج2، ص 45 .

297- المكي : المصدر نفسه، ص 50 .

298- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 50 .

299- ابن عربي : كتابات التجليات – مجموعة الرسائل، ج2، ص36.

300- سورة البقرة الآية 165 .

301- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 65 .

302- سورة الحجرات الآية 13 .

303- رواه البخاري في كتاب الإيمان .

304- الطوسي : اللمع، ص57 .

305- الغزالي : إحياء علوم الدين، ج4، ص288 .

306- ابن تيمية : التحفة العراقية، ص77 .

307- ابن القيم : الفوائد، ص 52 .

308- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 50 .

309- سورة الأحزاب الآية 21 .

310- سورة آل عمران الآية 9 .

311- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 50 .

312- سورة الصف : الآية 4 .

313- المكي : قوت القلوب، ج2، ص 54 .

314- المكي : المصدر نفسه ونفس الصفحة .

315- المكي : المصدر نفسه ونفس الصفحة .

316- المكـي : المصـدر نفسـه، ص 67. سـبق الإشـارة إلـى الحـديث القدسي في مستهل البحث .